مشاهدات

ابن جبير في بلاد الشام والجزيرة

ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة ، فخمة ، قد طالت صحبتها للزمن ، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن ، قد كادت ابراجها تلتقي انتظاما ، لقرب مسافة بعضها [من بعض] ، وباطن الداخل منها بيوت ، بعضها على بعض ، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله ، كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته ، وسعة وضعه ، وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية ، هي من المرافق الحربية . وفي أعلى البلد قلعة عظيمة ، قد رص بناؤها رصا ، ينتظمهما سور عتيق البنية ، مشيد البروج ، وتتصل بها دور السلطان ، وقد فصل بينهما وبين البلد ، شارع متسع ، يمتد من أعلى البلد الى اسفله ، ودجلة شرقي البلد ، وهي متصلة بالسور ، وابراجه في مائها .

وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق ، وأحدث فيه بعض أمراء البلدة ـ وكان يعرف بمجاهد الدين ـ جامعا على شط دجلة ، ما أرى وضع جامع أحفل منه ، بناء يقصر الوصف عنه ، وعن تزيينه وترتيبه ، وكل ذلك نقش في الآجر . وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ، ويطيف به شبابيك حديد ، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا احسن ، ووصفه يطول ، وإنما وقع الالماع بالبعض ، جريا الى الاختصار . وامامه مارستان حفيل ، من بناء مجاهد الدين المذكور .

وبنى ايضا داخل البلد ، وفي سوقه ، قيسارية للتجار ، كأنها الخان العظيم ، تنغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت ، بعضها على بعض ، قد جلي ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف ، الذي لامثيل له . فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها ، وللمدينة جامعان : احدهما جديد ، والآخر من عهد بني امية ، وفي صحن هذا الجامع قبة ، داخلها سارية رخام قائمة ، قد

خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها ، وفي اعلاها خصة رخام مثمنة ، يخرج عليها انبوب من الماء ، خروج انزعاج وشدة ، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة ، كأنه قضيب من البلور معتدل ، ثم ينعكس الى أسفل القبة ، ويجمع في هذين الجامعين القديم والحديث ، ويجمع ايضا في جامع الربض . وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة ، فتلوح كأنها القصور المشرفة ، ولها مارستان حاشى الذي ذكرناه في الربض .

وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها « مشهد جرجيس صلى الله عليه وسلم » وقد بني فيه مسجد ، وقبره في زاوية من احد بيوت المسجد ، عن يمين الداخل إليه ، وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر ، يجده المار الى الجامع من باب الجسر عن يساره ، فتبر كنا بزيارة هذا القبر المقدس ، والوقوف عنده ، نفعنا الله بذلك .

ومما خص الله به هذه البلد ، أن في الشرق منها ، اذا عبرت دجلة على نحو الميل ، « تل التوبة » وهو التل الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه ، ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب . وبمقربة منه ، على قدر الميل ايضا العين المباركة المنسوبة اليه ، ويقال : إنه أمر قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة ، ثم صعدوا على التل داعين ، وفي هذا التل بناء عظيم ، هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ، ومقاصر ، ومطاهر ، وسقايات ، ويضم الجميع باب واحد ، وفي وسط ذلك البناء بيت يسدل عليه ستر ، وينغلق دونه باب كريم مرصع كله ، يقال : إنه كان الموضع الذي وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم ، ومحراب هذا البيت يقال : انه كان بيته الذي كان يتعبد فيه ، ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظما فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ، ويتعبدون فيه . وحول هذا الرباط قرى كثيرة ، ويتصل بها خراب عظيم ، يقال: أنه كان مدينة « نينوى » وهي مدينة يونس عليه السلام ، واثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر ، وفرج الابواب فيه بينة ، وأكوام أبراجه مشرفة ، بتنا

بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ، (ثم) صبحنا العين المباركة ، وشربنا من مائها ، وتطهرنا فيها ، وصلينا في المسجد المتصل بها ، والله يدفع بالنية في ذلك ، بمنه وكرمه ، وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة ، يستعملون اعمال البر فلا تلقي منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم ، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم . فكان مقامنا في هذه البلدة أربعة ايام .

ومن أحفل المشاهد الدنياوية المريبة ، بروز شاهدناه يوم الاربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين : أم عز الدين صاحب الموصل ، وبنت الامير مسعود المتقدم ذكرها ، فخرج الناس عن بكرة ابيهم ركبانا ومشاة وخرج النساء كذلك ، واكثرهن راكبات ، وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج امير البلد للقاء والدته ، مع زعماء دولته . فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة ، قد جللوا اعناق إبلهم بالحرير الملون ، وقلدوها القلائد المزوقة . ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها ، وامامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف ، وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات ، فلا تكاد تبين من القبة موضعا ، ومطيتاها تزحفان بها زحفا ، وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب ، ومراكب جواريها كذلك ؛ مجموع ذلك الذهب لايحصى تقديره ، وكان مشهدا ابهت الأبصار ، وأحدث الاعتبار ، وكل ملك يفنى الا ملك الواحد القهار ، لا شريك له .

واخبرنا غير واحد من الثقات ، ممن يعرف حال خاتون هذه ، انها موصوفة بالعبادة والخير ، مؤثرة لأفعال البر ، فمنها أنها انفقت في طريقها هذا الى الحجاز ، في صدقات ونفقات في السبيل ، مالا عظيما ، وهي تحب الصالحين والصالحات ، وتزورهم متذكرة رغبة في دعائهم ، وشأنها عجيب كله على شبابها ، وانغماسها في نعيم الملك . والله يهدي من يشاء من عبادة .

وفي عشي اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة ، وهـو يوم الجمعـة السـادس والعشرين لصـفر المذكور ، رحلنا منهـا على دواب اشتريناها بالموصل ، تفاديا من معاملة الجمـالين ، على ان القـدر المحمود لم يسبب لنا الا صحبة الا شبه منهم ، ومـن شـكرناه على طول الصحبة وتماديها من مكة شرفها الله الى الموصـل . فـأسرينا ليلة السبت الى بعيد نصف الليل ، ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل ، ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور ، وقلنا بقرية تعرف « بعين الرصد »،وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد يتحـدر فيه الماء ، وكان مقيلا مباركا . وفي تلك القرية خان كبير جـديد ، وفي محـلات الطريق كلها خـانات ، واتفـق مبيتنا تلك الليلة بـالقرية المذكورة ، وأسرينا منها ، وبتنا بقرية كبيرة تعـرف « بجـدال » لهـا حصـن عتيق . وفي يومنا هذا رأينا ، عن يمين الطريق ، « جبل الجـودي » المذكور في كتاب الله تعالى ، والذي اسـتوت عليه سـفينة نوح عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل ، ثم رحلنا في السحر الاعلى ، من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر . فكان مبيتنا بقرية من قـرى « نصيبين » ومنها اليهـا مـرحلة ، ويعـرف الموضـع المذكور « بالكلاني » .

شهر ربيع الأول من سنة ثمانين ، عرفنا الله بركتة

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بمـوافقة الثـاني عشر مـن يونيه ، ونحن بالقرية المذكورة ، فرحلنا منها سـحر يوم الثـلاثاء المذكور ، ووصلنا « نصيبين » قبل الظهر من اليوم المذكور .

ذكر مدينة نصيبين ، حرسها الله

شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شـباب ، وبـاطنها هـرم ، جميلة

المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ، يمتد امامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر ، قد اجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه ، وتطرد في نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار ، يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفي ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانيء حيث يقول :

طابت نصيبين لي يوما فطبت لها
ياليت حظي من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضي الشمائل ، اندلسي الخمائل ، يرف غضارة ونضارة ، ويتألق عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البادية باد عليه ، فلا مطمح للبصر اليه ، لاتجد العين فيه فسحة مجال ، ولا مشحة جمال ، وهذا النهر يتسرب اليها من عين معينه ، منبعها بجبل قريب منها ، تنقسم منها مذانب تحترق بسائطها وعمائرها ، ويتخلل البلد منها جزء فيتفرق على شوارعها ويلج في بعض ديارها ، ويصل الى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه ، وينصب في صهريجين : احدهما وسط الصحن ، والآخر عند الباب الشرقي منه ، ويفضي الى سقايتين حول الجامع . وعلى النهر المذكور ، جسر معقود من صم الحجارة ، يتصل بباب المدينة القبلي ، وفيها مدرستان ، ومارستان واحد ، وصاحبها معين الدين أخو عز الدين صاحب الموصل (١) ، ابنا أتابك ولمعين [الدين] أيضا مدينة « سنجار » وهي عن يمين الطريق الى « الموصل » .

ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم ، الشيخ ابو اليقظان الأسود الجسد ، الابيض الكبد ، أحد الاولياء الذين نور الله بصائرهم بالايمان ، وجعلهم من الباقيات الصالحات في الزمان ، الشهير المقامات ، الموصوف بالكرامات ، نضو (٢) التبتل والزهادة ، ومن اخلقت جدته العبادة ، قد اكتفى بنسج يده ، ولايدخر من قوت يومه لغده ؛ أسعدنا الله بلقائه ، وأصحبنا من

بركة دعائه ، عشي يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول ، فحمدنا الله عز وجل على أن من علينا بـرؤيته ، وشرفنا بمصـافحته ، والله يدفعنا بدعائه ، إنه سميع مجيب لا اله سواه .

فكان نزولنا بها في خان خارجها ، وبتنا بها ليلة الاربعاء الثـاني من ربيع الاول . ورحلنا صبيحة في قافلة كبيرة من البغال والحمير : حرانيين ، وحلبيين ، وسواهم من أهل البلاد ، بلاد بكر ومايليها ، وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال ، فتمادى سيرنا الى اول الظهر ، ونحن على أهبة وحذر مـن اغارة الا كراد ، الذين هم آفة هذه الجهات من الموصـل الى نصـيبين الى مـدينة دنيسر؛ يقطعون السبيل ، ويسعون فسادا في الارض ، وسـكناهم في جبـال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ، ولم يعـن الله سـلاطينها على قمعهم ، وكف عادتهم ، فهم ربما وصلوا في بعض الاحيان الى باب نصيبين ، ولادافع لهم ولا مـانع الا الله عز وجـل . فقلنا يوم الاربعاء المذكور ، ورأينا ذلك اليوم ، عن يمين طريقنا ، بقرب مـن صفح الجبل ، مدينة « دارا » العتيقة ، وهي بيضاء كبيرة ولها قلعة مشرفة ، ويليها بمقدار نصف مرحلة ، مدينة « ماردين » ، وهـي في صفح جبل في قنتة قلعة لها كبيرة ، هي من قـلاع الدنيا الشـهيرة ، وكلتا المدينتين معمورة .

ذكر مدينة دنيسر ، حرسها الله

هي في بسيط من الارض فسـيح ، وحـولها بسـاتين الرياحين والخضر ، يسقى بالسواقي ، وهي مائلة الطبـع الى البـادية ، ولا سور لها ، وهي مشحونة بشرا ، ولها الأسواق الحفيلة ، والارزاق الواسعة ، وهي مخطر لأهل بلاد الشام ، وديار بكر ، وآمد ، وبلاد الروم التي تلي طاعة الأمير مسـعود ، ومـايليها ، ولهـا المحـرث الواسع ، ولها مرافق كثيرة . فـكان نزولنا مـع القـافلة ببـراح

ظـاهرها ، وأصـبحنا يوم الخميس الثـالث لربيع [الأول] بهـا فريحين ، وخارجها مدرسة جديدة ، بقية البناء فيها ، ويتصل بهـا حمام ، والبساتين حولها ، فهي مدرسة ومأذنة وصاحب هذه البلدة قطب الدين ، وهو أيضا صاحب مدينة « دارا » ومدينة « مـاردين » و « رأس العين » وهو قريب لابني اتابك(٣) .

وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الاندلس ، كلهـم قـد تحلى بحلية تنسب الى الدين ، فلا تسمع الا ألقابا هائلة ، وصفات لذي التحصيل غير طائلة ، قـد تسـاوى فيهـا السوقة والملوك ، واشترك فيها الغني والصعلوك ، ليس فيهم من ارتسـم بسـمة بـه تليق ، او اتصف بصفة هو بها خليق إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن ، والمشتهر الفضل والعدل ، فهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك في سواه فـزعازع ريح ، وشهادات يردها التجريح ، ودعوى نسبة للدين برحت بـه أي تبريح !

ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد(٤)

ونرجع الى حديث المراحل ، قربها الله :

فكان مقامنا بنيسر الى أن صلينا الجمعة ، وهـو اليوم الرابـع لربيع[الأول] ، تلوم أهل القافلة بها لشهود سوقها ، لأن بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد بعدها سوق حفيلة ، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بهـا ، لأن الطريق كلها يمينا وشمالا قرى متصلة وخانات مشيدة ، ويسـمون هذه السوق المجتمع اليها من الجهـات البـازار ، وأيام كل سـوق معلومة .

ورحلنا اثر صلاة الجمعة ، فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن ،

تعرف « بتل العقارب » هي للنصارى المعاهدين الذميين ، ذكرتناهذه القرية بقرى الاندلس حسنا ونضارة ، تحفها البساتين والكروم وانواع الاشجار ، ويتسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه ، وخطها متسع ، والبساتين قد انتظمته ، وشاهدنا بها من الخنابيص (٥) امثال الغنم كثرة وانسا بأهلها . ثم وصلنا عشي النهار الى قرية اخرى تعرف « بالجشر » هي الان لناس من المعاهدين ، وهم فرقة من فرق الروم . فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيع المذكور ، ثم اسحرنا منها ، ووصلنا مدينة « رأس العين » قبيل الظهر من يوم السبت المذكور .

ذكر مدينة رأس العين ، حرسها الله

هذا الاسم لها من اصدق الصفات ، وموضوعها به أشرف الموضوعات ، وذلك ان الله تعالى فجر أرضها عيونا ، واجراها ماء معينا ، فتقسمت مذانب ، وانسابت جداول ، تتبسط في مروج خضر ، فكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد ، تحف بها أشجار وبساتين ، قد انتظمت حافتيها الى آخر انتهائها من عمارة بطحائها ، وأعظم هذه العيون عينان : احداهما فوق الاخرى ، فالعليا منهما نابعة فوق الارض في صمم الحجارة ، كأنها في جوف غار كبير متسع يبسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم ، ثم يخرج ويسيل نهرا كبيرا كأكبر ما يكون من الانهار ، وينتهي الى العين الاخرى ويلتقي بمائها ، وهذه العين الثانية عجب من عجائب مخلوقات الله عز وجل ، وذلك انها نابعة تحت الارض من الحجر الصلد ، بنحو أربع قامات او ازيد ، ويتسع منبعها حتى يصير صهريجا في ذلك العمق ، ويعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه الارض ، فربما يروم السابح القوي السباحة ، الشديد الغوص في اعماق المياه ، ان يصل بغوصه الى قعره ، فيمجه الماء بقوة ، اذبعاثا من منبعه ، فلا يتناهى في غوصه الى مقدار نصف مسافة

العمق او أقل شيئا ؛ شاهدنا ذلك عيانا . وماؤها اصفى من الزلال ، واعذب من السلسبيل ، يشف عما حواه ، فلو طرح الدينار فيه في الليلة الظلماء لما اخفاه ، ويصاد فيها سمك جليل من اطيب مايكون من السمك ، وينقسم ماء هذه العين نهرين : احدهما أخذ يمينا ، والآخر يسارا ، فالأيمن يشق خانقاه مبنية للصوفية والغرباء بازاء العين ، وهي تسمى الرباط أيضا ، والايسر ينسرب على جانب الخانقاه ، وتفضي منه جداول الى مظاهرها ومرافقها المعدة للحاجة البشرية ، ثم يلتقيان اسلفها مع نهر العين الأخرى العليا . وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع ، بيوت ارحاء تتصل على شط موضوع وسط النهر ، كأنه سد . ومن مجتمع ماء هاتين العينين منشأ نهر الخابور .

وبمقر به من هذه الخانقاه بحيث تناظرها ، مدرسة ،بازائها حمام ، وكلاهما قد وهى وأخلق وتعطل ، ومارأى كان في موضوعات لدنيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لانها في جزيرة خضراء ، والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب ، والمدخل اليها من جانب واحد . وأمامها ووراءها بستان ، وبازائها دولاب يلقي الماء الى بساتين مرتفعة عن مصب النهر ، وشأن هذا الموضع كله عجيب جدا ، فغاية حسن القرى بشرقي الاندلس ، ان يكون لها مثل هذا الموضع جملا ، او تتحلى بمثل هذه العيون ولله القدرة في جميع مخلوقاته .

وأما المدينة فالابداوة بها اعتناء ، والحضارة عنها استغناء ، لاسور يحصنها ، ولادور انيقة البناء تحسنها ، قد ضحيت (٦) في صحرائها كأنها عوذة لبطحائها . وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن ، ولها جامعان حديث وقديم ، فالقديم بموضع هذه العيون ، وتتفجر أمامه عين معينة هي دون اللتين ذكرناهما ، وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، لكنه قد اثر القدم فيه ، حتى آذن بتداعيه ، والجامع الآخر داخل البلد وفيه يجمع أهله ، فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة ، لم نختلس في سفرنا كله مثلها .

فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور ، وهو السادس عشر ليونيه ، رحلنا منها رغبة الاسراء، وبرد الليل ، وتفاديا من حر هجيرة التأويب ، لأن منها الى حران مسيرة يومين ، لاعمارة فيها ، فتمادى سيرنا الى الصباح ، ثم نزلنا في الصحراء على ماء جب ، وارحنا قليلا . ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الأحد ، وسرنا ونزلنا قريب العصر على ماء بئر ، بموضع فيه برج مشيد وآثار قديمة ، يعرف « ببرج حواء » . فبيتنا به ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة ، واسرينا الى الصباح ، فوصلنا مدينة « حران » مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور ، والثامن عشر ليونيه ، والحمد لله على تيسيره .

ذكر مدينة حران ، كلاها الله

بلد لاحسن لديه ، ولاظل يتوسط برديه ، قد اشتق من اسمه هواؤه ، فلا يأنف البرد ماؤه ، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وارجاؤه ، ولاتجد فيه مقيلا ، ولا تتنفس منه الا نفسا ثقيلا ، قد نبذ بالعراء ، ووضع في وسط الصحراء ، فعدم رونق الحضارة ، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة .

استغفر الله ! كفى بهذا البلد شرفا وفضلا أنها البلدة العتيقة المنسوبة لابينا ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وله بقبلها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك ، فيه عين جارية ، كان مأوى له ولسارة صلوات الله عليهما ، ومتعبدا لهما ببركة هذه النسبة ، قد جعل الله هذه البلد مقرا للصالحين المتزهدين ، ومثابة للسائحين المتبتلين . لقينا من افرادهم الشيخ أبا البركات حيان بن عبد العزيز ، حذاء مسجده المنسوب اليه ، وهو يسكن منه في زاوية بناها في قبلته ، وتتصل بها في آخر الجانب زاوية لابنه عمر ، قد التزمها وأشبه طريقة ابيه فما ظلم ، وتعرفت منه شنشنة أعرفها من أخزم .

فوصلنا الى الشيخ ، وهو قد نيف على الثمانين ، فصافحنا ودعا لنا وامرنا بلقاء ابنه عمر المذكور . فملنا اليه ولقيناه ، ودعا لنا ، ثم ودعناهما وانصرفنا مسرورين ، بلقاء رجلين من رجال الآخرة .

ولقينا ايضا بمسجد عتيق الشيخ الزاهد سلمة ، فلقينا رجلا من الزهاد الافراد ، فدعا لنا وسألنا ، وودعناه وانصرفنا ، وبالبلد سلمة آخر ، يعرف بالمكشوف الرأس ، لايغطي رأسه تواضعالله عز وجل حتى عرف بذلك ، وصلنا الى منزله ، فأعلمنا أنه خرج للبرية سائحا .

وبهذه البلدة كثير من أهل الخير ، وأهلها هيذون معتدلون ، محبون للغرباء ، مؤثرون للفقراء . وأهل هذه البلاد ، من الموصل لديار بكر ، وديار ربيعة الى الشام ، على هذه السبيل من حب الغرباء ، واكرام الفقراء ؛ وأهل قراها كذلك . فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا ، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة ، وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجب ، والله يذفعهم بما هم عليه ، وأما عبادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم ، فاكثر من ان يقيدهم الاحصاء ، والله يذفع المسلمين ببركاتهم ، وصوالح دعواتهم ، بمنه وكرمه .

ولهذه البلدة المذكورة أسواق حفيلة الانتظام ، عجيبة الترتيب ، مسقفة كلها بالخشب ، فلا يزال أهلها في ظل ممدود ، فتخترقها كأنك تخترق دارا كبيرة الشوارع ، قد بني عند كل ملتقى أربع أسواق منها ، قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص ، هي كالمفرق لتلك السكك . ويتصل بهذه الأسواق جامعها المكرم ، وهو عتيق مجدد ، قد جاء على غاية الحسن ، وله صحن كبير ، فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوار رخام ، وتحت كل قبة بئر عذبة ، وفي الصحن ايضا قبة رابعة عظيمة ، قد قامت على عشر سوار من الرخام ،دور كل سارية تسعة أشبار ،وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم ، دوره خمسة عشر شبرا . وهذه القبة من بنيان الروم . واعلاها مجوف كأنه البرج المشيد ، يقال : إنه كان مخزنا

لعدتهم الحربية ، والله أعلم ، والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا ، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط ، وسعته خمس عشرة خطوة ، وهو خمسة ابلطة . وما رأينا جامعا اوسع حنايا منه . وجداره المتصل بالصحن ، الذي عليه المدخل اليه ، مفتح كله ابوابا ، عددها تسعة عشرة بابا : تسعة يمينا ، وتسعة شمالا ، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب ، يمسك قوسه من أعلى الجدار الى اسفله بهي المنظر ، جميل الوضع ، كأنه باب من ابواب المدن الكبار . ولهذه الابواب كلها اغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش ، تنطبق عليها على شبه ابواب مجالس القصور ، فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع ، وحسن ترتيب اسواقه المتصلة به ، مرأى عجيبا قلما يوجد في المدن مثل انتظامه .

ولهذه البلدة مدرسة ومارستانان . وهي بلدة كبيرة ، وسورها متين حصين ، مبني بالحجارة المنحوتة ، المرصوص بعضها على بعض ، وفي نهاية من القوة ، وكذلك بنيان الجامع المكرم . ولها قلعة حصينةمما يلي الجهة الشرقية منها ، منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما ، ومنقطعة ايضا عن سورها بحفير عظيم يستدير بها ، قد شيدت حافاته بالحجارة المركومة ، فجاء في نهاية الوثاقة والقوة . وسور القلعة وثيق الحصانة ، ولهذه البلدة نهير ، مجراه بالجهة الشرقية ايضا منها بين سورها وجبانتها ، ومصبه من عين هي على بعد من البلد .

والبلد كثير الخلق ، واسع الرزق ، ظاهر البركة ، كثير المساجد ، جم المرافق ، على احفل ما يكون من المدن . وصاحبه مظفرالدين بن زين الدين وطاعته الى صلاح الدينوهذه البلاد كلها من الموصل الى نصيبين الى الفرات ، المعروفةبديار ربيعة وحدها من نصيبين الى الفرات مع ما يلي الجنوب من الطريق ، وديار بكر التي تليها في الجانب الجوفي كآمد وميا فارقين وحاني وغيرها مما يطول ذكره ، ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين ، فهم الى طاعته

وإن كانوا مستبدين ، وفضله يبقي عليهم ، ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله .

فكان نزولنا ظاهر البلد بشرقيه على نهيره المذكور ، واقمنا مريحين يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بعده ، واثر الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس ، الذي فاتنا لقاؤه يوم الاثنين ، فلقيناه بمسجده فرأينا رجلا عليه سيما الصالحين ، وسمت المحبين ، مع طلاقة وبشر ، وكرم لقاء وبر ، فآنسنا ودعا لنا ، وودعناه وانصرفنا حامدين الله عز وجل ، على ما من به علينا من لقاء اوليائه الصالحين وعبادة المقربين .

وفي ليلة الاربعاء التاسع لربيع المذكور ، كان رحيلنا بعد تحويم ساعة ، فأسرينا الى الصباح ، ونزلنا مريحين « بتل عبده » ، وهو موضع عمارة ، وهذا التل مشرف متسع ، كأنه المائدة المنصوبة ، وفيه اثر بناء قديم . وبهذا الموضع ماء جار ، وكان رحيلنا منه عند المغرب ، واسرينا الليل كله ، واجتزنا على قرية تعرف « بالبيضاء » فيها خان كبير جديد ، وهو نصف الطريق من حران الى الفرات ، ويقابلها على اليمين من الطريق ، في استقبالك الفرات الى الشام ، مدينة ، « سروج » التي شهر ذكرها الحريري بنسبة أبي زيد اليها ، وفيها البساتين والمياة المطردة ، حسبما وصفها به في مقاماته .

فكان وصولنا الى الفرات ضحوة النهار ، وعبرنا في الزواريق المقلة المعدة للعبور ، الى قلعة جديدة على الشط ، تعرف « بقلعة نجم » وحولها ديار بادية ، وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز ، فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور ، واذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام ، وسرت في طاعة صلاح الدين الى دمشق . والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر ، وعن يسار الطريق ، في استقبالك الفرات الى الشام ، مدينة « الرقة » وهي على الفرات ، وتليها

« رحبة مالك بن طوق » وتعرف « برحبة الشام » ، وهي من المدن الشهيرة ، ثم رحلنا منها عند مضي ثلث الليل الاول ، واسرينا ووصلنا مدينة « منبج » مع الصباح من يوم الجمعة الحادي عشر لربيع المذكور ، والثاني والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة منبج ، حرسها الله

بلدة فسيحة الارجاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء ، جوها صقيل ، ومجتلاها جميل ، ونسميها أرج الذشر عليل ، نهارها يندى ظله ، وليلها كما قيل فيه : سحر كله ، تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الاشجار ، مختلفة الثمار . والماء يطرد فيها ، ويتخلل جميع نواحيها ، وخصص الله داخلها بآبار معينة ، شهدية العذوبة ، سلسبيلية المذاق ، تكون في كل دار منها البئر والبئران ، وارضها أرض كريمة ، تستنبط مياها كلها ، واسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا ، وأعالي اسواقها مسقفة ، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات ، لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الاحقاب ، حتى أخذ منها الخراب ؛ كانت من مدن الروم العتيقة ، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها . ولها قلعة حصينة في جوفيها ، تنقطع عنها وتنحاز منها ، ومدن هذه الجهات كلها لاتخلو من القلاع السلطانية . وأهلها أهل فضل وخير ، سنيون شافعيون ، وهي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة ، والعقائد الفاسدة ، كما تجده في الاكثر من هذه البلاد ، فمعاملاتهم صحيحة ، واحوالهم مستقيمة ، وجادتهم الواضحة في دينهم من اعتراض بنيات الطريق سليمة .

فكان نزولنا خارجها ، في أحد بساتينها ، وأقمنا يوما مريحين ، ثم رحلنا نصف الليل . ووصلنا « بزاعة » ضحوة يوم السبت الثاني عشر لربيع المذكور .

ذكر بلدة بزاعة كلاها الله عز وجل

بقعة طيبة الثرى ، واسعة الذرى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى ، بها سوق تجمع بين المرافق السفرية ، والمتاجر الحضرية ، وفي اعلاها قلعة كبيرة حصينة ، رامها أحد ملوك الزمن ففاظته باستصعابها ، فأمر بثلم بنائها حتى غادرها عورة منبوذة بعرائها ، ولهذه البلدة عين معينة ، يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة ، وتريك بروذقها الانيق حسن الحضارة .

ويناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة ، تعرف « بالباب » هي باب بين بزاعة وحلب ، وكان يعمرها منذ ثماني سنين قوم من الملاحدة الاسماعيلية لايحصى عددهم الا الله فطار شرارهم ، وقطع هذه السبيل فسادهم واضرارهم ، حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية ، وحركتهم الانفة والحمية ، فتجمعوا من كل أوب عليهم ، ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم ، وعجلوا بقطع دابرهم ، وكومت بهذه البطحاء جماجمهم ، وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم ، وأحاق بهم مكرهم ، والحمد لله رب العالمين . وسكانها اليوم قوم سنيون . فأقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلدة مريحين ، ورحلنا منها في الليل ، واسرينا الى الصباح ، ووصلنا مدينة « حلب » ضحوة يوم الاحد الثالث عشر لربيع الاول والرابع والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة حلب ، حرسها الله تعالى

بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير ، فكم أهاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح ، لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير في القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام او

تستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الارض مستديرة ، منحوتة الارجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من احكم تقديرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها ، عتيقة في الازل ، حديثة وإن لم تزل ، قد طاولت الايام والاعوام ، وشيعت الخواص والعوام . هذه منازلها وديارها ، فأين سكانها قديما وعمارها وتلك دار مملكتها وفناؤها ، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ اجل ، فني جميعهم ، ولم يأن بعد فناؤها ! فياعجبا للبلاد تبقى وتذهب املاكها ، ويهلكون ولايقضى هلاكها ، تخطب بعدهم فلا يتعذر ملاكها (٧) وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها ، هذه حلب ، كم ادخلت من ملوكها في خبر كان ، ونسخت بظرف الزمان بالمكان ، اذ اسمها فتحلت بزينة الغوان ، ودانت بالغدر فيمن خان وتجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان ، هيهات ! هيهات ! سيهرم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها ، وتتطرق جنبات الحوادث اليها ، حتى يرث الله الارض ومن عليها ، لا إله سواه ، سبحانه جلت قدرته .

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده ، فلنعد الى ما كنا بصدده ، فنقول : ان من شرف هذه القلعة ، انه يذكر انها كانت قديما في الزمان الاول ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ، بغنيمات له ، فيحلبها هنالك ، ويتصدق بلبنها ، فذلك سميت « حلب » والله أعلم . وبها مشهد كريم له ، يقصده الناس ويتبركون بالصلاة فيه . ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع ، ان الماء بها نابع ، وقد صنع عليه جبان ، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر ، والطعام يصبر فيها الدهر كله ، وليس في شروط الحصانة أهم ولا آكد من هاتين الخلتين ويطيف بهذين الجبين المذكورين ، سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد ، ويعترض دونهما خندق والحسن اعظم من أن تنتهي الى وصفه . وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة ، فيها العلالي المنيفة ، والقصاب المشرفة ، قد تفتحت كلها طيقانا . وكل برج مسكون ، وداخلها المساكن السلطانية ، والمنازل الرفيعة الملوكية .

واما البلد فموضوعه ضخم جدا ، حفيل التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من [سماط] صنعة الى سماط صنعة أخرى ، الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشب ، فسكانها في ظلال وارفة ، فكل سوق منها تقيد الابصار حسنا ، وتستوقف المستوفز تعجبا ، وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا ، مطيفة بالجامع المكرم ، لايتشوق الجالس فيها مرأى سواها ، ولوكان من المرائي الرياضية . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السماط خزانة واحدة ، وتخللتها شرف خشبية بديعة الذقش ، وتفتحت كلها حوانيت ، فجاء منظرها أجمل منظر ، وكل سماط منها يتصل بباب من ابواب الجامع المكرم ، وهذا الجامع من احسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتح كله ابوابا قصرية الحسن ، الى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الابصار حسن منظرها ، وفي صحنه بئران معينان ، والبلاط القبلي لامقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع ، رائق الانشراح . وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره ، فما أرى في بلد من البلاد منبرا على شكله ، وغرابة صنعته ، واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ، فتجللت صفحاته كلها حسنا ، على تلك الصفة الغربية . وارتفع كالتاج العظيم على المحراب ، وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوس اعلاه ، وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرضع كله بالعاج والآج واتصال الترصيع من المنبر الى المحراب ، مع ما يليهما من جدار القبلة ، دون ان يتبين بينهما انفصال ، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا . وحسن هذا الجامع المكرم اكثر من ان يوصف .

ويتصل به من الجانب الغربي ، مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنا واتقان صنعة ، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى ، وهذه المدرسة من أحفل ماشاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن

أظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتح كله بيوتا وغرفا ، ولها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنبا ، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا امامها ، فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة ، وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو اربع مدارس أو خمس ، ولها مارستان .

وأمرها في الاحتفال عظيم ، فهي بلدة تليق بالخلافة ،وحسنها كله داخل لاخارج لها الا نهير يجري من جوفيها الى قبليها ، ويشق ربضها المستدير بها ، فإن لها ربضا كبيرا ، فيه من الخانات مالا يحصى عدده . وبهذا النهر الارحاء ، وهي متصلة بالبلد ، وقائمة وسط ربضه وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله ، وكيفما كان الامر فيه داخلا وخارجا ، فهو من بلاد الدنيا التي لانظير لها ، والوصف فيه يطول .

فكان نزولنا بربضه في خان يعرف بخان ابي الشكر ؛ فأقمنا به أربعة أيام ، ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور ، والثامن والعشرين ليونيه ، ووصلنا « قذسرين » قبيل العصر ، فأرحنا بها قليلا ، ثم انتقلنا الى قرية تعرف « بتل باجر » . فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثامن عشر منه . وقذسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان ، لكنها خربت وعادت كأن لم تكن بالأمس ، فلم يبق الا آثارها الدارسة ، ورسومها الطامسة ، ولكن قراها عامرة منتظمة ، لانها على محرث عظيم مد البصر عرضا وطولا ، وتشبهها من البلاد الاندلسية جيان ، ولذلك يذكر أن أهل قذسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيان ، تأذسا بشبه الوطن وتعللا به مثلما فعل في اكثر بلادها ، حسب ماهو معروف .

ثم رحلنا من ذلك الموضع ، عند الثلث الماضي من الليل ، فأسرينا وسرنا الى ضحوة من النهار ، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف « بباقدين » في خان كبير يعرف بخان التركمان ، وثيق الحصانة

وخانات هذا الطريق كأنهـا القـلاع امتناعا وحصـانة ، وابـوابها حديد ، وهي من الوثاقة في غاية . ثم رحلنا من هذا الموضع ، وبتنا بموضع يعرف « بتمنى » في خان وثيق ، على الصفة المذكورة .

ثم اسحرنا منه يوم السـبت التـاسع عشر لربيع الاول المذكور ، وهو آخر يوم من يونيه ، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين ، يوم الجمعة المذكور . بلاد « المعرة » ، وهي سواد كلهـا : بشـجر الزيتون والتين والفسـتق وانواع الفـواكه ، ويتصـل التفـاف بساتينها ، وانتظام قراها ، مسيرة يومين ، وهي من اخصب بـلاد الله ، واكثرها ارزاقا ، ووراءهـا جبـل «بهراء» وهـو سـامي الارتفاع ، ممتد الطول ، يتصل من البحر الى البحر ، وفي صـفحته حصون للملاحدة الاسماعيلية ، فرقة مرقت مـن الاسـلام ، وادعت الالهية في أحد الانام ، قيض لهم شيطان من الانس يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخيالات مـوه عليهـم بـاستعمالها ، وسـحرهم بمحالها ، فاتخذوه الها يعبدونه ، ويبذلون الانفس دونه ، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره ، بحيث يأمر أحدهم بالتردي مـن شـاهقة جبل فيتردى ، ويستعجل في مرضاته الردى ، والله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء بقدرته ، ونعـوذبه سـبحانه مـن الفتنة في الدين ، ونسأله العصمة مـن ضـلال الملحـدين ، ولا رب غيره ، ولامعبـود سواه . وجبل بهراء المذكور هو حد بين بلاد المسـلمين والافـرنج ، لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما مـن بـلادهم ، اعادهـا الله للمسلمين . ويغيرون منه على حماة وحمص ، وهـو بمـرأى العين منهما ، فكان وصولنا الى مدينة « حماه » في الضحى الأعلى ، مـن يوم السبت المذكور ، فنزلنا بربضها في احد خاناته .

ذكر مدينة حماة ، حماها الله تعالى

مدينة شهيرة في البلدان ، قـديمة الصـحبة للزمـان ، غير فسـيحة الفناء ، ولا رائقة البناء ، اقطارها مصمومة ، وديارها مـركومة ،

لايهش البصر اليها ، عند الاطلال عليها ، كأنها تكن بهجتها وتخفيها ، فتجد حسنها كامنا فيها ، حتى اذا جست خلالها ، ونقرت ظلالها ، أبصرت بشرقيها نهرا كبيرا ، تتسع في تدفقه اساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طرتيه ، بساتين تتهدل اغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عذارا بصفحتيه ، يذسرب في ظلالها ، ويذساب على سمت اعتدالها ، وبأحد شطيه المتصل بربضها مظاهر منتظمة بيوتا عدة ، يخترق الماء من أحد دواليبه ، جميع نواحيها ، فلا يجد المغتسل اثر اذى فيها ، وعلى شطه الثاني المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير ، قد فتح جداره الشرقي عليه ، طيقانا تجتلى منها منظرا ترتاح النفس اليه ، وتتقيد الابصار لديه ، وبازاء ممر النهر بجوفي المدينة ، قلعة حلبية الوضع ، وإن كانت دونها في الحصانة والمنع ، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها ، فهي لاتخاف الصدى ، ولا تتهيب مرام العدى . وموضوع هذه المدينة في وهدة من الارض عريضة مستطيلة ، كأنها خندق عميق ، يرتفع لها جانبان : أحدهما كالجبل المطل ، والمدينة العليا متصلة بصفح ذلك الجانب الجبلي ، والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة ، قد تولى نحتها الزمان ، وحصل لها بحصانتها من كل عدو الامان ، والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان ، وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العلي الجبلي ويطيف بها . والمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب ، لأن جانبها المتصل بالنهر لايحتاج الى سور ، وعلى النهر جسر كبير ، معقود بصم الحجارة ، ويتصل من المدينة السفلى الى ربضها . وربضها كبير فيه الخانات والديار ، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته ، الى ان يفرغ لدخول المدينة ، وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى ، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات ، وموضوعها حسن التنظيم ، بديع الترتيب والتقسيم ، ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ، ولها ثلاث مدارس ، ومارستان على شط النهر ، بازاء الجامع الصغير . وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض ، قد انتظم اكثره شجرات الاعناب ،

وفيه المزارع والمحارث ، وفي منظره انشراح للنفس وانفساح ، والبساتين متصلة على شطي النهر ، وهو يسمى « العاصي » لأن ظاهرة انحداره من سفل الى علو ، ومجراه من الجنوب الى الشمال ، وهو يجتاز على قبلي حمص وبمقربة منها .

فكان مقامنا بحماة الى عشي يوم السبت المذكور ، ثم رحلنا منها ، وأسرينا الليل كله ، وأجزنا في نصفه هذا النهر العاصي المذكور ، على جسر كبير معقود من الحجارة . وعليه مدينة رستن التي خربها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وآثارها عظيمة ، ويذكر الروم القسطنطينيون أن بها أموالا جمة مكنوزة ، والله أعلم بذلك ، فوصلنا الى مدينة « حمص » مع شروق الشمس من يوم الاحد الموفى عشرين لربيع [الأول] وهو أول يوليه ، فنزلنا بظاهرها بخان السبيل .

ذكر مدينة حمص ، حرسها الله تعالى

هي فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة في بسيط من الارض عريض مداه ، لايخترقه النسيم بمشراه ، يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيح أغبر ، لاماء ولا شجر ، ولاظل ولا ثمر ، فهي تشتكي ظمأها ، وتستقي على البعد ماءها ، فيجلب لها من نهيرها العاصي ، وهو منها بنحو مسافة الميل ، وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها ، وتستغرب نضرتها ، ومنبعه في مغارة بصدع جبل ، فوقها بمرحلة بموضع يقابل « بعلبك » أعادها الله ، وهي عن يمين الطريق الى دمشق ، وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو ، لمجاورتهم إياه ، وبعدهم في ذلك اهل حلب . فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب ، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه ، فكأن الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه ، وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ،

عاصية غير مطيعة ، قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه ، هو سيف الله المسلول ، ومعه قبر ابنه ومعه قبر ابنه عبد الرحمن ، وقبر عبيد الله بن عمر رضي الله عنهم . واسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وابوابها ابواب حديد ، سامية الاشراف ، هائلة المنظر ، رائعة الاطلال والاناقة ، تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة ، واما داخلها فما شئت من بادية شعثاء ، خلقة الارجاء ، ملفقة البناء ، لا اشراقا لآفاقها ، ولا رونق لأسواقها ، كاسدة لا عهد لها بنفاقها ، وماظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تتراءى ناره ، ويحرق اذا يطير شراره ، ويتعهد اذا شاء كل يوم مغاره ، وسألنا أحد الاشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن الجهات ؟ فقال ، وقد اذكر ذلك:حمص كلها مارستان ! وكفاك تبيينا شهادة اهلها فيها ! وبها مدرسة واحدة . وتجد في هذه البلدة عند اطلاك عليها من بعد ، في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها ، بعض شبه بمدينة « اشبيلية » من بلاد الاندلس ، يقع للحين في نفسك خياله ، وبهذا الاسم سميت في القديم ، وهي العلة التي اوجبت نزول الاعراب أهل حمص فيها ، حسبما يذكر ، وهذا التشبيه ، وان لم يكن بذاته ، فله لمحة من إحدى جهاته .

وأقمنا بها يوم الأحد المذكور ، ويوم الاثنين بعده ، وهو الثاني ليوليه ، الى أول الظهر ، ورحلنا منها وتمادينا الى العشي ، ونزلنا بقرية خربة تعرف « مشغرى » ، فعشينا بها الدواب ، ثم رحلنا عند المغرب ، وأسرينا طول ليلتنا ، وتمادى سيرنا الى الضحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المذكور . ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين ، تعرف « بالقارة » ليس فيها من المسلمين أحد ، وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد ، في وسطه صهريج كبير ، مملوء ماء يتسرب له تحت الارض من عين على البعد ، فهو لايزال ملآن ، فارحنا بالخان المذكور الى الظهر ، ثم رحلنا منه الى قرية تعرف « بالنبك » بها ماء مار ومحرث

متسع ، فنزلنا بها للتعشية ، ثم رحلنا منها بعد اختلاس تهويمه خفيفة .

واسرينا الليل كله ، فوصلنا الى خان السلطان مع الصباح ، وهو خان بناه صلاح الدين صاحب الشام ، وهو في نهاية الوثاقة والحسن ، بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها ، واحتفالهم في تشييدها . وفي هذا الخان ماء جار ، يتسرب الى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج ، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص في سرب في الارض ، والطريق من حمص الى دمشق قليل العمارة الا في ثلاثة مواضع او أربعة ؛ منها هذه الخانات المذكورة . فأقمنا بها يوم الاربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور ، مريحين ومستدركين للنوم الى أول الظهر ، ثم رحلنا وجزنا « بثنية العقاب » ، ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها . وعند هذه الثنية مفرق طريقين : احداهما التي جئنا منها ، والثانية آخذة شرقا في البرية على السماوة الى العراق ، وهي طريق قصد لكنها لاتدخل الا في الشتاء ، فانحدرنا منها بين جبال في بطن واد الى البسيط ، ونزلنا منه بموضع يعرف « بالقصير » فيه خان كبير ، والنهر جار أمامه ، ثم رحلنا منه الصبح ، وسرنا في بساتين متصلة لايوصف حسنها ، ووصلنا دمشق في الضحى الاعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الأول ، والخامس ليوليه ، والحمد لله رب العالمين .

شهر ربيع الآخر

استهل هلاله يوم الاربعاء ، بموافقة الحادي عشر ليوليه ، ونحن بدمشق ، نازلين فيها بدار الحديث ، غربي جامعها المكرم .

ذكر مدينة دمشق ، حرسها الله تعالى

جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤنق المشرق ، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تجلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار ومعين ، ظل ظليل وماء سلسبيل ، وتذساب مذانبه اذسياب الاراقم بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم :هلموا الى معرس للحسن ومقيل ، قد سئمت ارضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب(٨) » ، قد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لخطته بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد النظر ، ولله صدق القائلين عنها : « إن كانت الجنة في الارض فدمشق لاشك فيها ، وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحانيها » .

ذكر جامعها المكرم ، عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الاسلام حسنا ، واتقان بناء وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين . وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . ومن عجيب شأنه لاتنسج به العنكبوت ولا تدخله ، ولاتلم به الطير المعروفة بالخطاف .....

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، لقراءة سبع من القرآن دائما ، ومثله اثر صلاة العصر

لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرأون فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة . ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لايجيد حفظ القرآن . وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم ، يعيش منه ازيد من خمس مئة انسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم . فلا تخلو القراءة منه صباحا ولامساء . وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع . وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم اجراء معلوم . ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء ، وأهل الطلب ، كثيرة واسعة ، واغرب ما يحدث به ان سارية من سواريه ، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس ، ابصرنا بها فقيها من أهل إشبيلية ، يعرف بالمرادي . وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا ، يستند كل انسان منهم الى سارية ، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن . وللصبيان أيضا على قراءتهم جراية معلومة ، فأهل الجدة من آبائهم ينزهون أبناءهم عن اخذها ، وسائرهم يأخذها . وهذا من المفاخر الاسلامية .

وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد ، ولها وقف كبير ، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به ، ويدفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم ؛ وهذا ايضا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد . وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها ، انما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها ، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو . وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة فينفصل من التلقين الى التكتيب ، لهم في ذلك سيرة حسنة . ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط ، لأن المعلم له لايشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده في التعليم ، والصبي في التعلم كذلك ، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوة .....

وبآخر هذا الجبل [جبل قاسيون] المذكور ، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد ، الربوة المباركة المذكورة في كتاب

الله تعالى : مأوى المسيح وامه صلوات الله عليهما ، وهي من ابدع مناظر الدنيا حسنا ، وجمالا ، واشراقا ، واتقان بناء ، واحتفال تشييد ، وشرف وضع ، هي كالقصر المشيد ، ويصعد اليها على ادراج ، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي كالبيت الصغير . وبازائها بيت يقال : انه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم ، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ، ولا سيما المأوى المبارك . وله باب حديد صغير ينغلق دونه ، والمسجد يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم ير أحسن منها ، قد سيق اليها الماء من علو ، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار ، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم ير أحسن من منظره . وخلف ذلك مظاهر ، يجري الماء في كل بيت منها ، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان . وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ، ومقسم مائة ، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار ، يأخذ كل نهر طريقه ، واكبر هذه الانهار نهر يعرف « بثورا » ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نقر له في الحجر الصلد اسفلها ، حتى انفتح له متسرب واسع كالغار ، وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان او الرجال من أعلى الربوة في النهر ، واندفع تحت الماء حتى يشق متسربة تحت الربوة ويخرج اسفلها ، وهي مخاطرة كبيرة . ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية في البلد ، ولا اشراف كاشرافها حسنا وجمالا واتساعا مسرح للابصار ، وتحتها تلك الانهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى فتحار الابصار في حسن اجتماعها ، وافتراقها ، واندفاع انصبابها ، وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها ، اعظم من ان يحيط به وصف واصف في غلق مدحه ، وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطيرة كبيرة .

ويتصل بها اسفل منها ، بمقربة من المسافة ، قرية كبيرة تعرف « بالنيرب » ، قد غطتها البساتين ، فلا يظهر منها الا ما سما بناؤه . وبها جامع لم ير أحسن منه ، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون ، فيخيل لناظره أنه ديباج مبسوط ، وفيه سقاية ماء

رائقة الحسن ، ومطهرة لهـا عشرة أبـواب ، يجـري الماء فيهـا ، ويطيف بها ، فوقها لجهة القبلة قـرية كبيرة ، هـي مـن أحسـن القرى ، تعرف « بالمزة » ، وبها جامع كبير وسقاية معينة ، وبقرية النيرب حمام ، واكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات .

وفي الجهة الشرقية من البلد ، عن يمين الطريق الى مولد ابراهيم عليه السلام ، قرية تعـرف « ببيت لاهية » يريدون الآلهـة ، وكانت فيها كنيسة هي الآن مسجد مبارك . وكان آزر أبو ابراهيم ينحـت فيها الآلهة ويصورها ، فيجيء الخليل ابـراهيم صـلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم فيكسرها ، وهي اليوم مسجد يجتمـع فيه أهـل القرية ، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة ، منتـظم كله خواتيم واشكالات بديعة ، يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة ، وهو من المشاهد الكريمة ، وللربوة المبـاركة اوقـاف كثيرة ، مـن بساتين وارض بيضاء ورباع . وهي معينة التقسـيم لوظائفها : فمنها ما هو معين باسم النفقة في الأدم للبائتين فيهـا مـن الزوار ، ومنها ما هو معين للاكسية برسم التغطية بالليل ، ومنهـا مـا هـو معين للطعام ، الى تقاسيم تسـتوفي جميع مـؤنها ، ومـؤن الامين الراتب فيها برسم الامامة ، والمؤذن الملتزم خدمتها ؛ ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر . وهي خطة من أعظم الخطط .

والامين فيها الآن مـن بقية المرابـطين المسـوفيين(٩) ومـن أعيانهم ، يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابـراهيم بـن مـالك ، وله مكانة من السلطان ووجـوه الدولة ، وله في الشـهر خمسـة دنانير حاشى فائدة الربوة ، وهو متسم بالخير ومرتسم بـه ، وهـو متعلق بسبب من اسباب البر في ايواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات ، يسبب لهم وجوه المعـايش مـن الامـامة في مسـجد ، او سكنى بمدرسة تجري عليه فيها النفقة ، أو التزام زاوية مـن زوايا المسجد الجامع يجبى اليه فيها رزقه ، او حضور في قراءة سبع ، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجري عليه ما يقـوم به من أوقافه ، الى غير ذلك من الوجوه المعاشية ، على هذه السبيل

المباركة مما يطول شرحه ، فالغريب المحتاج هنا ، اذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه ، وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ، ممن عهد الخدمة والمهنة ، يسبب له أيضا أسباب غريبة من الخدمة : إما بستان يكون ناطورا فيه ، أو حمام يكون عينا على خدمته وحافظا لاثوابها داخلية ، أو طاحونة يكون أمينا عليها ، أو كفالة صبيان يؤديهم الى محاضرهم ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسعة . وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء ، لأنهم قد علالهم بهذا البلد صيت في الامانة ، وطار لهم فيها ذكر ، وأهلها لا يأتمنون البلديين . وهذا من الطاف الله تعالى بالغرباء ، وله الحمد والشكر على ما يولي عباده . وإن شاء احد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان ، يقبله ويكرمه ويرتبه ، ويجري عليه بحسب قدره ومنصبه ، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديما وحديثا . وقد تسلسل بنا القول الى غير الباب الذي نحن فيه والحديث ذو شجون ، والله كفيل بحسن العون ، لا رب سواه .

وبغربي البلد جبانة (١٠) كبيرة ، تعرف بقبور الشهداء ، فيها كثير من الصحابة والتابعين الائمة الصالحين رضي الله عنهم . فالمشهور بها من قبور الصحابة ، رضي الله عنهم ، قبر ابي الدرداء ، وقبر زوجته أم الدرداء رضي الله عنهما ، وموضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه « في هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم ، منهم فضالة بن عبيد ، وسهل بن الحنظلية ، من الذين بايعوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تحت الشجرة ، وخال [أمير] المؤمنين معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه » وقبره مسندم في الموضع المذكور . وقرأت في فضائل دمشق : أن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية رضي الله عنهما ، مدفونة بدمشق . وقبر واثلة بن الاسقع من أهل الصفة ، وفي الجهة التي [تلي] هذا الموضوع المبارك ، تاريخ فيه مكتوب : « هذا قبر أوس ابن أوس الثقفي » . وحول هذا الموضع المذكور ، على مقربة منه ، قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضي الله عنه ، والدعاء في هـذا الموضوع المبارك مستجاب ، قد جرب ذلك كثير مـن الأولياء وأهـل الخير المتبركين بزيارتهم ، الى قبور كثيرة من الصحابة وسـواهم من الصالحين ، ممن قد ذهب اسمه وغبـر ذكره ، ومشـاهد كثيرة لأهل البيت رضي الله عنهم رجالا ونساء ، وقـد احتفـل الشـيعة في البناء عليهم ، ولها الاوقاف الواسعة .

ومن احفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلي بن ابي طالب ، رضي الله عنه ، قد بني عليه مسجد حفيل ، رائق البناء ، وبازائه بسـتان كله نارنج والماء يطرد فيه من سـقاية معينة . والمسـجد كله سـتور معلقة في جوانبه صغار وكبار ، وفي المحراب حجر عظيم ، قـد شـق بنصفين ، والتحم بينهما ولم يبن النصف عن النصف بالكلية ، يزعم الشيعة أنه انشق لعلي رضي الله عنه : إما بضربة بسيفه ، أو بأمر من الامور الالهية على يديه . ولم يذكر عن علي ، رضي الله عنه ، أنه دخل قط هذا البلد ، اللهم الا إن زعموا أنه كان في النوم ، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم ، اذ لا تصح لهم جهة اليقظة ، وهذا الحجر اوجـب بنيان هذا المشهد . وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم اكثـر من السنيين بها . وقد عمروا البلاد بمذاهبهم ، وهم فرق شتى .....

وسلط الله على هذه الرافضة طائفة ، تعرف بالبذوية ، سنيون يديذون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها ، وكل من الحقوه بهم لخصـلة يرونها فيه منها يحرمونه [ويلبسونه] السراويل ، فيلحقوه بهـم ، ولايرون ان يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به ، لهم في ذلك مذاهب عجيبة . واذا أقسم أحدهم بالفتوة بـرقسمه ، وهـم يقتلون هؤلاء الروافض ، أينما وجدوهم . وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف .

ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بـن عبـادة رئيس الخـزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وهـو بقـرية تعـرف « بالمنيحة » شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه ، وعلى قبـره مسجد صغير حسن البناء ، والقبر في وسطه ، وعند رأسه مكتوب :

« هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ومن مشاهد أهل البيت رضي الله عنهم : مشهد أم كلثوم ابنة علي بن ابي طالب رضي الله عنهما ، ويقال لها زينب الصغرى ، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وسلم لشبهما بابنته أم كلثوم رضي الله عنها ، والله اعلم بذلك ، ومشهدها الكريم بقرية قبلي البلد تعرف « براوية » على مقدار فرسخ ، وعليه مسجد كبير ، وخارجه مساكن ، وله أوقاف ، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم ، مشينا اليه ، وبتنا به ، وتبركنا برؤيته ، نفعنا الله بذلك .

وبالجبانة التي بغربي البلد ، من قبور أهل البيت ، كثير رضي الله عنهم ، منها قبران عليهما مسجد يقال : إنهما من ولد الحسن رضي الله عنهما ومسجد آخر فيه قبر يقال : إنه لسكينة بنت الحسين رضي الله عنهما ، أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت ، ومن المشاهد ايضا قبر بجامع النيرب ، في بيت بالجهة الشرقية منه ، يقال : إنه لأم مريم رضي الله عنها ، وبقرية « داريا » قبر أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه ، وعليه قبة هي علامة القبر ، وبها ايضا قبر ابي سليمان الداراني رضي الله عنه . وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال ، وهي لجهة الغرب منه ، ومن المشاهد الكريمة ، التي لم نعاينها ووصفت لنا قبرا شيث ونوح عليهما السلام ، وهما « بالبقاع » وهي على يومين في البلد . وحدثنا من ذرع قبر شيث فألفى فيه أربعين باعا ، وفي قبر نوح ثلاثين ، وبازاء قبر نوح قبر ابنه له . وعلى هذه القبور بناء ، ولها أوقاف كثيرة ، ولها قيم يلتزمها ، ومن المشاهد المباركة ايضا ، بالجبانة الغربية وبمقربة من باب الجابية ، قبر اويس القرني رضي الله عنه ، وقبور خلفاء بني امية رحمهم الله ، يقال : انها بازاء باب الصغير ، بمقربة من الجبانة المذكورة ، وعليها اليوم بناء يسكن فيه ، والمشاهد المباركة بهذه البلدة اكثر من ان تنضبط بالتقييد ، وانما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم .

ومن المشاهد الشهيرة ايضا ، مسجد الاقدام ، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلي القبلة ، على قارعة الطريق الاعظم الآخذ الى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر ، وفي هذا المسجد بيت صغير ، فيه حجر مكتوب عليه : « كان بعض الصالحين يرى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فيقول : ههنا قبر اخي موسى صلى الله عليه وسلم » . والكثيب الأحمر على الطريق ، بمقربة من هذا الموضع ، وهو بين غالية وغويلية كما ورد في الاثر ، وهما موضعان ، وشأن هذا المسجد في البركة عظيم ، ويقال : ان الذور ماخلا قط من هذا الموضع الذي يذكر ان القبر فيه ، حيث الحجر المكتوب . وله اوقاف كثيرة . فأما الاقدام ففي حجارة في الطريق اليه ، معلم عليها ، تجد اثر القدم في كل حجر ، وعدد الاقدام تسع ، ويقال : انها اثر قدم موسى عليه السلام ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، لا اله سواه .

شهر جمادى الأولى ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة ،بموافقة العاشر لشهر اغوشت العجمي

ذكر جمل من احوال البلد ، عمره الله بالاسلام

لهذه البلدة ثمانية ابواب : « باب شرقي » ، وهو شرقي ، وفيه منارة بيضاء يقال : إن عيسى عليه السلام ينزل فيها ، لما جاء في الأثر انه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويلي هذا الباب « باب توما » وهو ايضا في حيز الشرق ، ثم « باب السلامة » ، ثم « باب الفراديس » ، وهو شمالي ؛ ثم « باب الفرج » ، ثم « باب النصر » ، وهو غربي ؛ ثم « باب الجابية » كذلك ، ثم « باب الصغير » ، وهو بين الغرب والقبلة .

والمسجد الجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد ، والارباض به مطيفة الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيرا . والارباض كبار ، والبلد ليس بمفرط الكبر ، (و) هو مائل الطول ، وسككه ضيقة مظلمة ، وبناؤه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله ثلاث طبقات ، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لانه أكثر بلاد الدنيا خلقا ، وحسنة كله خارج لاداخل .

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها ، وهي حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبهت الأفكار ، وتستوقف الابصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان قديم وحديث ، والحديث احفلهما وأكبرهما ، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا ، وله قومه بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى ، وعلى الذفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والأغذية وغير ذلك ، والأطباء يبكرون اليه في كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية ، حسبما يليق بكل انسان منهم ، والمارستان الآخر على هذا الرسم ، لكن الاحتفال في الجديد اكثر ، وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم . وللمجانين المعتقلين ايضا ضرب من العلاج ، وهم في سلاسل موثقون ، ونعوذ بالله من المحنة وسوء القدر ، وتندر من بعضهم الذوادر الظريفة ، حسبما كنا نسمع به ، ومن اعجب ما حدثت به من ذلك : ان رجلا كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ، ممن أوتى مسحة جمال ، واسمه نصر الله ، وكان المعلم يهيم به . فزاد كلفه حتى اختبل ، وادي الى المارستان ، واشتهرت علته وفضيحته بالصبي ، وربما كان يدخله أبوه اليه ، فقيل له : اخرج وعد لما كنت عليه من القرآن . فقال متماجنا تماجن المجانين : وأي قراءة بقيت لي ؟ ما

بقي في حفظي من القرآن شيء سوى « اذا جاء نصر الله » فضحك منه ، ومن قوله ، ونسأل الله العافية له ولكل مسلم ، فلم يزل كذلك حتى توفي سمح الله له .

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام ، والمدارس كذلك . ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره نوره الله . وهي قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار . فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر ، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله ، وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي برسم الصوفية ، وهي قصور مزخرفة ، يطرد في جميعها الماء على احسن منظر يبصر .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعايش ، واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة ، وهم على طريقة شريفة ، وسنة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقا . وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا .

ومن اعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في اعلاه مساكن لم ير أجمل اشرافا منها ، وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان متنزها لاحد ملوك الأتراك فيقال : انه كان فيه احدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم من الذبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر . فرفعوا الأمر لنور الدين ، فلم يزل حتى

استوهبه من صاحبه ، ووقفه برسم الصوفية مؤبدا لهم . فطال العجب من السماحة بمثله ، وبقي اثر الفضل فيه مخلدا لنور الدين رحمه الله . ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة ، وكان من الملوك الزهاد ، وتوفي في شوال سنة تسع وستين وخمس مئة ، واستولى بعده على الأمر صلاح الدين ، وهو على طريقة من الفضل شهيرة ، وشأنه في الملوك كبيرة ، وله الأثر الباقي شرفه من ازالة المكوس بطريق الحجاز ، ودفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز ، وكانت الأيام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة ، الى أن محا الله رسمها على يدي هذا الملك العادل ، اصلحه الله .

ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى : أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك ،أوقاف كثيرة ، منها طاحونتان ، وسبعة بساتين ، وارض بيضاء ، وحمام ودكانان بالعطارين ، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه ، وهو ابو الحسن على بن سردال الجياني المعروف بالأسود : أن هذا الوقف المغربي يغل ، اذا كان النظر فيه جيدا ، خمس مئة دينار في العام ، وكان له رحمه الله بجانبهم فضل كبير ، دفعه الله بما اسلف من الخير ، وهيأ ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها .

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ، ولاسيما لحفاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب ، فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدا ، وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر ، والاتساع أوجد ، فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا ، فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها ، فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسويف ، فذلك من لايتوجه هذا الخطاب عليه ، وانما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا

المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد وتقرع سن الندم على زمن التصييغ ، والله يوفق ويرشد ، لا اله سواه ، قد نصحت ان ألفيت سامعا . وناديت إن اسمعت مجيبا ، « ومن يهد الله فهو المهتدى (١١) ، جلت قدرته ، وتعالى جده . ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها الا مبادرة أهلها لاكرام الغرباء ، وايثار الفقراء ، ولا سيما أهل باديتها، فانك تجد من بدار الى بر الضيف عجبا ، كفى بذلك شرفا لها . وربما يعرض أحدهم كسرته على فقير فيتوقف عن قبولها ، فيبكي الرجل ويقول : لو علم الله في خيرا لأكل الفقير طعامي ، لهم في ذلك سر شريف .

ومن عجيب امرهم تعظيمهم للحاج ، على قرب مسافة الحج منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله . فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركابهم ، ومن أغرب ما حدثناه من ذلك : أن الحاج الدمشقي مع من انضاف اليهم من المغاربة عند صدورهم الى دمشق في هذا العام ، الذي هو عام ثمانين ، خرج الناس لتلقيهم : الجم الغفير نساء ورجالا ، يصافحونهم ، ويتمسحون بهم ، واخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها ، واخرجوا اليهم الاطعمة ، فاخبرني من ابصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ،وينا ولنهم الخبر . فاذا عض الحاج فيه اختطفنه من ايديهم ، وتبادرن لاكله ، تبركا بأكل الحاج له ، ودفعن له عوضا منه دراهم ، الى غير ذلك من الأمور العجيبة ضد ما اعتدنا في المغرب في ذلك . وصنع بنا في بغداد عند تلقي الحاج بها مثل ذلك او قريب منه ، ولو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت بنا عن مقصد التقييد ، وانما وقع الالماع بلمحة دالة ، يكتفى بها عن التطويل ، وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال ، وينثال الخير عليه من أهل الضيعة ويلتزم الامامة أو التعليم أو ما شاء ، ومتى

سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان ، أو الى جبل الجودي ، فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل ، فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف الى حيث شاء .

ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان ، اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين ، جلبوا لهم القوت ، وأحسنوا اليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم ، وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة ، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ! ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ؛ ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم .

شاهدنا في هذا الوقت ، الذي هو شهر جمادى الأول ، ومن ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين ، لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلا ، وهو شرارة أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ، ويذكر أنه ينتهي الى اربع مئة قرية ، فنازله هذا السلطان ، وضيق عليه ، وطال حصاره . واختلاف القوافل من مصر الى دمشق ، على بلاد الافرنج ، غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ، وتجار النصارى أيضا لايمنع أحد منهم ولايعترض ، والنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم : وهي من الأمنة على غاية . وتجار النصارى ايضا يؤدون في بلاد

المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم ، والاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم ، وفي الفتنة

الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض الرعايا ولا التجار ، فالأمن لايفارقهم في جميع الاحوال سلما أو حربا ، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه والله يعلي كلمة الاسلام بمنه .

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان ، منحازة في الجهة الغربية من البلد ، وهي بازاء باب الفرج من أبواب البلد ، وبها جامع السلطان يجمع فيه وعلى مقربة منها ، خارج البلد في جهة الغرب ، ميدانان كأنهما مبسوطان خزا لشدة خضرتهما ،وعليهما حلق ، والنهر بينهما ، وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما ، وهما من أبدع المناظر ، يخرج السلطان اليهما ، ويلعب فيهما بالصوالجة ، ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما . وفي كل ليلة يخرج ابناء السلطان اليهما للرماية ، والمسابقة ، واللعب بالصوالجة . وبهذه البلدة ايضا قرب مئة حمام فيها وفي ارباضها ، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء ، يجري الماء فيها كلها ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب ، لأن المرافق بها كثيرة . وفي الذي ذكرناه من ذلك كفاية ، والله يبقيها دار اسلام بمنه ، وأسواق هذه البلدة من احفل اسواق البلاد ، واحسنها انتظاما ، وابدعها وضعا ، ولاسيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفناديق ، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية منفردة بضبتها واغلاقها الجديدة ، ولها ايضا سوق ، يعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية الى باب شرقي وفيه بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى ، وفي قبلته حجر يقال : ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع .

وحديث الدار المنسوب لعمر بن عبد العزيز ـ التي هي اليوم للصوفية ، وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب الناطفيين ، وقد تقدم التنبيه عليها قبل هذا ـ حديث عجيب ؛ وذلك ان الذي اشتراها ، وبناها ، وجعل لها الاوقاف الواسعة ، وأمر

بأن يدفن فيها ، وان يختم على قبره القرآن كل جمعة ، وعين من تلك الاوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلا من خبز الحواري - وهو ثلاثة ارطال من أرطال المغرب - رجل من العجم يعرف بالسميساطي - وسميساط بلدة من بلاد العجم - وكان موصوفا بالورع والزهد . وأصل يساره وتموله ، فيما ذكر لنا ، أنه الفى يوما من الأيام بالدهليز المذكور ازاء الدار المذكورة ، رجلا أسود مريضا ، مطروحا بموضعه ، غير ملتفت اليه ولا معتنى به ، فتأجر فيه ، والتزم تمريضه وخدمته ، والنظر له اغتناما للثواب من الله عز وجل . فحانت وفاة الرجل ، فاستدعى ممرضه السميساطي المذكور ، فقال له : « انت قد احسنت الى وخدمتني ، ولطفت في تمريضي ، واشفقت لحالي وغربتي ، فأنا أريد أن اكافئك على فعلك بي ، زائدا الى مكافأة الله عز وجل عني في الآجل ، إن شاء الله ؛ وذلك أبي كنت جن احد فتيان الخليفة المعتضد العباسي ، ومعروفا بزمام الدار ، وكانت لي حظوة ومكانة ، فعتب على بعض الأمر ، فخرجت طريدا ، فانتهيت الى هذه البلدة ، فاصابني فيها من أمر الله ما اصابني ، فسبيك الله لي رحمة ، فأنا أقلدك أمانة ، وأعهد اليك فيها عهدا ، اذا أنامت وغسلتني ، فانهض على بركة الله تعالى الى بغداد ، وتلطف في السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة ، فاذا ارشدت اليها فصرف الحيلة في اكترائها ، وارجو ان الله يعينك على ذلك. واذا سكنتها فاعمد الى موضع - سماه له فيها ، وذكر له أمارة عليه - فاحفر فيه مقدار كذا ، وانزع اللوح الذي تجده معترضا تحت الارض ، وخذ الذي تجده مدفونا تحت الارض ، وصرفه في منافعك ، وما يوفقك الله اليه من وجوه البر والخير ، مباركا لك في ذلك ، ان شاء الله » ثم توفي الرجل الموصي رحمه الله ، وتوجه الموصى اليه بعهده الى بغداد ، فيسر الله له في اكتراء الدار ، وانتهى الى الموضع المذكور فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها ، عظيمة الشأن ، كبيرة القدر ، فدسها في أحمال متاع ابتاعها ، وخرج الى دمشق من بغداد ، فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وبناها خانقاه للصوفية ، واحتفل فيها ، وابتاع لها الاوقاف ضياعا ورباعا ، وجعلها برسم الصوفية ،

واوصى بأن يدفن فيها . وأن يختم القرآن على قبره كل جمعة ، وعين لكل من يحضر ذلك ماذكرناه . فوجد الغرباء والفقراء في ذلك مرفقا كثيرا ، فتغص الخانقة بالقراة كل جمعة ، فاذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا ، واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز ، على الصفة المذكورة . وبقي للمتوفي جميل الاثر والخير رحمة الله ورضوانه عليه .

والكوثرية التي ذكرناها ايضا بالجامع المكرم ، والمقروءة كل يوم بعد العصر ، المعينة لمن لايحفظ القرآن كان أصلها أيضا أن احد ذوي اليسار توفي ، واوصى بأن يدس قبره في الجامع المكرم ، وأوقف وقفا يغل مئة وخمسين دينارا في السنة برسم من لايحفظ القرآن ، ويقرأ من سورة الكوثر الى الخاتمة . فيقسم له اربعون دينارا في كل ثلاثة أشهر من السنة ، ويذكر أن أحد الملوك السالفين توفي ايضا ، وأوصى بأن يجعل قبره في قبلة الجامع المكرم ، بحيث لايظهر ، وعين أوقافا عظيمة تغل نحو الالف دينار وأربع مئة دينار في السنة وزائد لقراء سبع القرآن كل يوم ، وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك كل يوم ، اثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم ، ويقال : إن في ذلك الموضع هو القبر المذكور . وقراءة السبع لاتتعدى ذلك الموضع ، متصلا مع جدار القبلة الى الجدار الشرقي ، والله عز وجل لايضيع أجر المحسنين . وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الايام ، نفع الله بها راسميها ، وناهيك فيها من بلاد يهدى فيها لهذه الصنائع المزلفة لرضوان الله عز وجل ، وللفقراء الملتزمين الجلوس في الجانب الشرقي من الجامع المكرم ، الذين ليس لهم مأوى يأوون اليه ، وقف وضعه بعض المتأجرين الموقفين برسمهم ، الى مايطول ذكره من المآثر الاخراوية الصدقية ، التي كفل الله بها غرباء هذه الجهات .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة ، المرجو لهم فيها من الله عز وجل قبول ، أنهم في كل سنة يتوخون الوقوف يوم

عرفة بجوامعهم ، اثر صلاة العصر ، يقف بهم ائمتهم كاشفي رؤوسهم ، داعين الى ربهم ، التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات فلا يزالون واقفين ، داعين ، متضرعين الى الله عز وجل ، وبحجاج بيته الحرام متوسلين ، الى أن يسقط قرص الشمس ، ويقدروا نفر الحاج ، فينفصلوا باكين على ماحرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات ، وداعين الى الله عز وجل في أن يوصلهم اليها ، ولايخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك .

ومن أعظم ماشاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن ،وهياكلها الهائلة البنيان ، المعجزة الصنعة والاتقان ، المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان : الصعود الى أعلى قبة الرصاص المذكورة في هذا التقييد ، القائمة وسط الجامع المكرم ، والدخول في جوفها ، وإجالة لحظ الاعتبار في بديع وضعها ، مع القبة التي في وسطها كأنها كرة مجوفة داخلة وسط كرة أخرى أعظم منها : صعدنا اليه في جملة من الاصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الأولى المذكورة ، من مرقى في الجانب الغربي من بلاط الصحن كان صومعة في القديم ، وتمشينا على سطح الجامع المكرم ، وكله الواح رصاص منتظمة ، كما قد تقدم الذكر لذلك ، وطول كل لوح أربعة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وربما اعترض في الالواح نقص أو زيادة ، حتى انتهينا الى القبة المذكورة ، فصعدنا اليها على سلم منصوب ، وريح الميد تكاد تطير بنا ، فحبونا في المشى المطيف بها ، وهو من رصاص ، وسعته ستة أشبار ، فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه ، فأسرعنا الولوج في جوف القبة ، على احد شراجيها المفتحة في الرصاص ، فابصرنا مرأى تحار فيه العقول ، وتقف دون ادراك هيبة وصفه الافهام ، وجلنا في فرش من الخشب العظام ، حول القبة الصغيرة الداخلة في جوف الرصاصية على الصفة التي ذكرناها ، ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه ، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان في المحاضر ، هذه القبة مستديرة كالكرة ، وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب

الضخام ، موثقة بنطق من الحديد ، ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة ، وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، وداخل هذه القبة ، وهو مايلي الجامع المكرم ، خواتيم من الخشب ، منتظم بعضها ببعض ، قد اتصل اتصالا عجيبا ، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب ، مزخرفة التلوين ، بديعة القرنصة ، يرتمي الابصار شعاع ذهبها ، وتتحير الالباب في كيفية عقدها ووضعها لافراط سموها أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتما مطروحا جوف القبة ، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة ، وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل واحد منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها ، والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شدت ايضا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام ، موثقة الاوساط بنطق الحديد ، وعددها ثمان وأربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، قد انعطفت انعطافا عجيبا ، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، ودور هذه القبة الرصاصية ثماذون خطوة ، وهي مئتا شبر وستون شبرا ، والحال فيها اعظم من أن يبلغ وصفها ، وانما هذا الذي ذكرناه نبذة يستدل بها على ماوراءها ، وتحت الغارب المستطيل المسمى الذسر ، الذي تحت هاتين القبتين ، مدخل عظيم ، هو سقف للمقصورة ، بينه وبينها سماء جص مزينة ، وقد انتظم فيه من الخشب مالايحصى عدده ، وانعقد بعضها ببعض وتقوس بعضها على بعض ، وتركبت تركيبا هائلا منظره ، وقد ادخلت في الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين ، وفي ذلك الجدار حجارة ، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ، لاتذقلها الفيلة فضلا عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من الهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ، ومعينهم على التأني لما ليس موجودا في طبائعهم البشرية ، ومظهر آياته على ايدي من يشاء من خلقه ، لا اله سواه ! والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة . قد قامت فوقها ارجل قصار ضخام من الحجارة الصمم الكبار . وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية ، واستدارت الشمسيات باستدارتها ، والقبتان

في رأي العين واحدة ، وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة في جوف الاخرى ، والظاهر منها قبة الرصاص .

ومن جملة عجائب ما عايناه في هاتين القبتين أن لم نجد فيهما عنكبوتا ناسجا ، على بعد العهد من التفقد لهما من احد ، والتعاهد لتنظيف مساحتهما ، والعنكبوت في امثالهما موجود كثير ، وقد كان حقق عندنا ان الجامع المكرم لاتنسج فيه العنكبوت ، ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف ، وقد تقدم ذكرنا لذلك في هذا التقييد ، فانصرفنا منحدرين ، وقد قضينا عجبا عجابا من هذا المنظر العظيم شأنه ، المعجز وضعه ، المترفع عن الادراك وصفه ، ويقال : إنه ماعلى ظهر المعمور أعجب منظرا ، ولا أبعد سموا ، ولا اغرب بنيانا ، من هذه القبة ، الا ما يحكى عن قبة بيت المقدس ، فانها يحكى انها ابعد في الارتفاع والسمو من هذه . وجملة الامر ان نظرها ، والوقوف على هيئة وضعها ، وعظيم الاستقدار فيها عند معاينها بالصعود اليها ، والولوج داخلها ، من اغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا ، والقدرة لله الواحد القهار ، لا اله سواه .

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرأون القرآن بأصوات شجية ، وتلاحين مبكية ، تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا ، يرفعون اصواتهم بها ، فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان ، وجنائزهم يصلى عليها في الجامع ، قبالة المقصورة ، فلا بد لكل جنازة من الجامع ، فاذا انتهوا الى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا الى موضع الصلاة عليها ، الا ان يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته ، فان الحالة المميزة له في ذلك ان يدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه ، وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن ، بازاء باب البريد ، فيصلون افرادا افرادا ، ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤونها ، ونقباء الجنائز يرفعون اصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء ، من محتشمي البلدة وأعيانهم ، ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين ،

فتسمع ما شئت من صدر الدين ، او شمسه ، أو بدره ، او نجمه ، او زينه ، او بهائه ، أو جماله ، او مجده ، أو فخره ، أو شرفه ، أو معينة ، أو محييه ، أو زكيه ، أو نجيبه ، الى مالا غاية له من هذه الالفاظ الموضوعة ؛ وتتبعها ولاسيما في الفقهاء بما شئت أيضا من سيد العلماء ، وجمال الائمة ، وحجة الاسلام ، وفخر الشريعة ، وشرف الملة ، ومفتي الفريقين ، الى مالانهاية له من هذه الالفاظ المحالية . فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساحبا انياله من الكبر ، ثانيا عطفه وقذاله ، فاذا استكملوا وفرغوا من القراءة ، وانتهى المجلس بهم منتهاه ، قام وعاظهم واحدا واحدا بحسب رتبهم في المعرفة ، فوعظ وذكر ، ونبه على خدع الدنيا وحذر ، وانشد في المعنى ما حضر من الاشعار ، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى ، ثم قعد ، وتلاه آخر على مثل طريقته الى أن يفرغوا ويتفرقوا ، فربما كان مجلسا نافعا لمن يحضره من الذكرى .

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتعظيم الحضرة ، واذا لقي أحد منهم آخر سلما يقول : جاء المملوك او الخادم برسم الخدمة ، كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطيا ، والجد عندهم عذقاء مغرب ، وصفه سلامهم ايماء للركوع او السجود ، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوي بينهم هويا . وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء ، وعند استعراض رقيق الاماء فياعجبا لهؤلاء الرجال ، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال ، لقد ابتذلوا انفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه ، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه ! لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل . فياللعجب منهم ، اذا تعاملوا بهذه المعاملة ، وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم ، فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟ لقد تساوت الالقاب عندهم

والرؤوس ، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس ! فسبحان خالق الخلق ، اطوارا ، لاشريك له ، ولامعبود سواه .

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير ، بجميع هذه الجهات كلها ، أنهم يمشون وأيديهم الى خلف ، قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة باحوال العناة مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنيفا ، واوثقوا تكتيفا ، وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تمييزا لهم في ذوي الخصوصية وتشريفا ، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطا في الاعضاء ، وراحة من الاعياء ، والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الارض شبرا ، او يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننا ، وكل منهم قد زين له سوء عمله ، فرآه حسنا ، استغفر الله منهم ! فان لهم من آداب المصافحة عوائد ، تجدد لهم الايمان ، وتستوهب لهم من الله الغفران ، لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة ، فهم يستعملونها اثر الصلوات ، ولاسيما اثر صلاة الصبح ، وصلاة العصر ، واذا سلم الامام ، وفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة ، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره ، فيتفرقون عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عز وجل . وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد أنهم يستعملونها عند رؤية الأهلة ، ويدعو بعضهم لبعض ، بتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه ، وفيما يعود عليه من أمثاله ؛ وتلك ايضا طريقة حسنة ، ينفعهم الله بها ، لما فيها من تعاطي الدعوات ، وتجديد المودات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضا رحمة من الله تعالى ونعمة .

وقد تقدم الذكر ايضا في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات « صلاح الدين ابي المظفر يوسف بن ايوب » ، وماله من المآثر المأثورة في الدنيا والدين ، ومثابرته على الجهاد اعداء الله ، لانه ليس أمام هذه البلدة بلدة للاسلام ، والشام اكثره بيد الافرنج ، فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه

الجهات ، فهو لايأوي لراحـــة ، ولايخلد الى دعة ، ولا يزال سرجـه مجلسه ؛ إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين ، وحللناها وقـد خرج لمنازلة حصن الكرك ، وقد تقـدم الذكر ايضـا له ، وهـو عليه محاصر حتى الآن ، والله تعالى يعينه على فتحه ، وسـمعنا أحـد فقهاء هذه البلدة ، وزعمائها المسـلمين بسـدة هـذا السـلطان ، والحاضرين مجلسه ، يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ، ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه ، رأينا إثباتها هنا : إحداها أن الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صفح عن جـريرة أحـد الجناة عليه :« أما أنا فلأن أخطي في العفو أحـب الي مـن أن اصـيب في العقوبة » . وهذا في الحلم منزع احنفي (١٣) وقال ايضا : وقـد تنوشدت بحضرته الاشعار ، وجرى ذكر من سلف مـن اكارم الملوك واجودهم : « والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت استكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضا مما اراقـه من حر ماء وجهـه في اسـتماحه اياي » . وهـذا في الكرم مـذهب رشيدي او جعفري (١٤) وحضره أحـد ممـاليكه المتميـزين لديه بالحظوة والاثرة ، مستعديا على جمال ذكر انه باعه جملا معيبا ، او صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : « ماعسى ان أصنع لك ، والمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، واوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما أنا عبـد الشرع وشحنته » . والشحنة عندهم صاحب الشرطة « فالحق يقضي لك او عليك » . وهذا في العقد مقصد عمري (١٥) وهذه كلمـات ، كفـى بها لهذا السلطان فخرا ، والله يمتع ببقائه الاسـلام والمسـلمين ، بمنه .

شهر جمادى الآخرة ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاحد التاسع من شهر شتنبر العجمي ، ونحن بـدمشق حـرسها الله ، على قـدم الرحلة الى عكة ، فتحهـا الله ، والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى ، وفي مراكبهم المعدة لسفر

الخريف المعروف عندهم بالصليبية ، عرفنا الله في ذلك معهود خيرته . وتكفلنا بكلاءته وعصمته ، بعزته وقدرته ، انه سبحانه الحنان المنان ، ولي الطول والاحسان ، ولارب غيره . وكان انفصالنا منها عشي يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور ، وهو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور ، في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة .

ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا ، أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج ، وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين ؛ شاهدنا من ذلك عند خروجنا امرا عجيبا ، وذلك ان صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك ، المتقدم الذكر في هذا التاريخ ، قصد اليه الافرنج في جميعهم ، وقد تألبوا من كل اوب ورامـوا ان يسبقوه الى موضع الماء ، ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين . فصمد اليهم ، واقلع عن الحصن بجملته ، وسبقهم الى موضع الماء . فحادوا عن طريقه ، وسلكوا طريقا وعرا ذهب فيه اكثر دوابهم ، وتوجهوا الى حصن الكرك المذكور ، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة الى بلادهم ، ولم يبق لهم الا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ، ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه ، فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغرة ، وانتهز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصدة ، فدهم مدينة نابلوس وهجمها بعسكره ، فاستولى عليها ، وسبى كل من فيها ، وأخذ اليها حصونا وضياعا . وامتلأت ايدي المسلمين سبيا لايحصى عدده من الافرنج ، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة منسوبة الى السامري . وانبسط فيهم القتل الذريع ، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها ، الى ما اكتفت من الامتعة ، والذخائر ، والاسباب، والأثاث ، الى النعم والكراع ، الى غير ذلك . وكان من فعل هذا السلطان الموفق ، أن أطلق ايدي المسلمين على جميع ما احتازته ، وسلم لهم ذلك ، فاحتازت كل يد [ما] حوت ، وامتلأت غنى ويسارا ، وعفى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مر عليها من بلاد الفرنج ،

وأبوا غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والاياب ، وتخلصوا من اسرى المسلمين عددا كثيرا وكانت غزوة لم يسمع بمثلها في البلاد .

وخرجنا نحن من دمشق ، وا وائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم ، كل بما احتواه وحصلت يده عليه ، وكان مبلغ السبي الافا لم نتحقق احصاءها ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الأقرب ليوم انفصالنا ، واعلمنا انه يجم عسكره قليلا ، ويعود الى الحصن المذكور ، فالله يعينه ويفتح عليه بعزته وقدرته ، وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين ، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة ، فكان مبيتنا ليلة الجمعة باداريا ، وهي قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف ، ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده الى قرية تعرف « ببيت جن » ، هي بين جبال ، ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت الى مدينة بانياس ، واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم ، متسعة التدويح ، واعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان . فسألنا عن ذلك ، فقيل لنا : هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحراميه الافرنج ، وهم الحواسه والقطاع ، من اخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ، ولو بباع أو شبر أسر ، ومن أخذ دونها الى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك اطلق سبيله ، لهم في ذلك عهد يوفون به ، وهو من اظرف الارتباطات الافرنجية واغربها .

ذكر مدينة بانياس ، حماها الله تعالى

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين ، وهي صغيرة ، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ، ويفضي الى احد أبواب المدينة ، وله مصب تحت أرحاء . وكانت بيد الافرنج ، فاسترجعها نور الدين رحمه الله . ولها محرث واسع في بطحاء متصلة ، يشرف عليها حصن للافرنج ، يسمى « هونين » ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة

فراسخ . وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجري بينهما فيها . فرحلنا عنها عشي يوم السبت المذكور ، الى قرية تعرف « بالمسيه (١٦) بمقربة من حصن الافرنج المذكور ، فكان مبيتنا بها ، ثم رحلنا منها يوم الاحد سحرا ، واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر ، واكثر شجرة الرند ، بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى ، تلتقي حافتاه ، ويتعلق بالسماء اعلاه ، يعرف « بالاسطبل » ، لوولجته العساكر لغابت فيه ، لامنجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه ، المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كئودان ، فعجبنا من أمر ذلك المكان . فاجزناه ومشينا عنه يسيرا ، وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف « بتبنين » وهو موضع تمكيس القوافل ، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة ، وهي ام الملك الخنزير صاحب عكة ، دمرها الله ، فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ، ومكس الناس تمكيسا غير مستقصى ، والضريبة فيه دينار وقيراط ، من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار اربعة وعشرون قيراطا .

وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين ، وذلك لمقدمة منهم احفظت الافرنج عليهم ، سببها أن طائفة من انجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون ، فكان لهم في اخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ، الزموها رؤوسهم ، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم ، وقال الافرنج : ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئا ، فلما تعرضوا لحربنا ، وتألبوا مع اخوانهم المسلمين علينا ، وجب ان نضع هذه الضريبة عليهم . فللمغاربة في أداء هذا المكس

سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو ، يسهله عليهم ، ويخفف عنتهم عنهم .

ورحلنا من تبنين دمرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة ، وعمائر منتظمة ، سكانها كلها مسلمون ، وهم مع الافرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولايعترضونهم في غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجرة ضريبة خفيفة يؤدونها ايضا ، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقهم كلها للمسلمين وهي القرى والضياع ، وقد اشربت الفتنة قلوب اكثرهم ، لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق ، وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : ان يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ، ويأنس بعدله ، فالى الله المشتكي من هذه الحال ، وحسبنا تعزية وتسلية ما جاء في الكتاب العزيز : «إن هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء »(١٧) .

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكة ، على مقدار فرسخ ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين ، مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة ، وأحضرهم صغيرا وكبيرا في غرفة متسعة بمنزله ، وأنالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم ، فعمهم بتكرمته وكنا فيمن حضر هذه الدعوة .

وبتنا تلك الليلة ، وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن عشر لشتنبر مدينة عكة دمرها الله ، وحملنا الى الديوان ، وهو خان معد لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب

مفروشة ، فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الآبنوس المذهبة الحلى ، وهم يكتبون بالعربية ، ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب ، لقب وقع عليه لمكانه من الخطة ، وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند ، وكل ما يجبى عندهم راجع الى الضمان ، وضمان هذا الديوان بمال عظيم ، فانزل التجار رحالهم به ، ونزلوا في اعلاه ، وطلب رحل من لا سلعة له ، لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله ، فنزل حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل ، فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بازاء البحر ، وسألنا الله تعالى حسن الخلاص ، وتيسير السلامة .

ذكر مدينة عكة ، دمرها الله واعادها

هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحط الجواري المنشئات في البحر كالاعلام ، مرفأ كل سفينة ، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطىء الاقدام ، تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجسا وعذره ،انتزعها الافرنج من ايدي المسلمين في العشر الاول من المئة السادسة ، فبكى لها الاسلام ملء جفونه ، وكانت أحد شجونه . فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ، وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بايدي المسلمين مسجدا صغيرا ، يجتمع الغرباء منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة ، وعند محرابه قبر صالح النبي ، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء ، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ، ببركة هذا القبر المقدس !

وفي شرقي البلدة العين ، المعروفة بعين البقر ، وهي التي اخرج الله

منهـــــا البقـــــــر لآدم صـــــــلى الله عليه وســـــــلم والمهبط لهذه العين على ادراج وطية ، وعليها مسجد بقـي محـرابه على حاله ، ووضع الافرنج في شرقيه محرابا لهم ، فالمسلم والكافـر يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصـلاه ، وهـو بـأيدي النصارى معظم محفوظ ، وابقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين .

فكان مقامنا بها يومين ، ثـم تـوجهنا الى صـور يوم الخميس الثاني عشر لجمادي المذكور والموفي عشرين لشتنبر المذكور على البر، واجتزنا في طريقنا على حصن كبير ، ويعرف « بالزيب » ، وهو مطل على قرى وعمائر متصـلة وعلى قـرية مسـورة تعـرف « بالاسكندرونة » ، وذلك لمطالعة مركب بها ، اعلمنا أنه يتوجه الى بجاية طمعا في الركوب فيه . فحللناهـا عشي يوم الخميس المذكور ، لان المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا ، فنزلنا بها في خان معد لنزول المسلمين .

ذكر مدينة صور ، دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لاتلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد اعدها الافرنج مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم ، هي انظف من عكة سككا وشوارع ، واهلها الين في الكفر طبائع، وأجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخـلائقهم اسمح ، ومنازلهم اوسع وافسح ، واحوال المسـلمين بهـا أهـون وأسكن ، وعكة أكبر وأطغى وأكفـر . وأمـا حصـانتها ومناعتهـا فأعجب ما يحدث به ، وذلك أنها راجعة الى بابين : احدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة فـالذي في البـر يفضي اليه ، بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها في ستائر مشـيدة محيطة بالباب ، وأما الذي في البحـر ، فهـو مـدخل بين بـرجين مشيدين الى ميناء ، ليس في البلاد البحرية أعجـب وضـعا منهـا ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها مـن الجـانب

الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها ، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء ، لايدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم ، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة ، لكنها لاتحمل السفن الكبار حمل تلك ، وانما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل .

فكان مقامنا بها أحد عشر يوما ، ودخلناها يوم الخميس ، وخرجنا منها يوم الاحد الثاني والعشرين لجمادي المذكور وهو آخر يوم من شتنبر ، وذلك ان المركب الذي كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه ، فلم نر الركوب فيه .

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها ، زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها . وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ؛ واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوي أرحامها ، وهي في ابهى زي ، وافخر لباس ، تسحب أنيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب ، قد حفت بشبكة مذسوجة ، وعلى ابتها مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فترا في فتر ، مشي الحمامة او سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جلة رجالها من النصارى ، في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أنيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادين في انفس الملابس ، ويرفلن في أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين ، يتطلعون فيهم ولا يذكرون عليهم ذلك ؛ فساروا بها حتى

ادخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومها ذلك في وليمة ، فأدانا الاتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه .

ثم عدنا الى عكة في البحر ، وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى المذكورة ، وأول يوم من شهر اكتوبر ، واكترينا في مركب كبير ، نروم الاقلاع الى مسينة من بلاد جزيرة صقلية ، والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل ، بعزته وقدرته . وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقي بايدي المسلمين . ولهم فيها مساجد أخر ، فأعلمنا به احد أشياخ أهل صور من المسلمين . أنها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمس مئة ، وأخذت عكة قبلها باثنتي عشرة سنة ، بعد محاصرة طويلة ، وبعد استيلاء المسغبة عليهم ذكر لنا انهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها وانهم حملتهم الأنفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ، ويحملوا السيف عليهم ، غيرة من تملك النصارى لهم ، ثم يخرجوا الى عدوهم بعزمة نافذة ، ويصدمونهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ، ويقضي الله قضاءه، فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم ، واجمعوا على دفع البلد ، والخروج منه بسلام ، فكان ذلك ، وتفرقوا في بلاد المسلمين ، ومنهم من استهواه حب الوطن ، فدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم ، بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها ، والله غالب على أمره ، سبحانه جلت قدرته ، ونفذت في البرية مشيئته ، وليست له عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر الا مجتازا ، وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين ، لشقات وأهوال يعانيها في بلادهم : منها الذلة والمسكنة الذمية ؛ ومنها سماع مايفجع الأفئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خطره ، لاسيما من أراذلهم وأسافلهم ؛ ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخنازير ، وجميع المحرمات ، الى غير ذلك مما لاينحصر ذكره ولا تعداده ، فالحذر الحذر من دخول بلادهم ، والله تعالى المسؤول حسن الاقالة والمغفرة من هذه الخطيئة ، التي زلت فيها القدم ، ولم تتداركها الا بعد موافقة الندم ، فهو سبحانه ولي ذلك لارب غيره .

ومن الفجائع التي يعانيها من حل ببلادهم اسرى المسلمين ، يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والاسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيل الحديد ، فتذفطر لهم الأفئدة ، ولا يغني الاشفاق عنهم شيئا ، ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة ، بهذه البلاد الشامية الافرنجية ، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ، وانما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة ، لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم لامخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل ، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين ، والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما يتفقون أموالهم في هذه السبيل . وقد كان نور الدين رحمه الله نذر في مرضة اصابته تفريق اثني عشر ألف دينار ، في فداء أسرى من المغاربة ، فلما استبل من مرضه ارسل في فدائهم ، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة ، وكانوا من حماة من جملة عمالته ، فأمر بصرفهم ، واخراج عوض عنهم من المغاربة وقال : « هؤلاء يفتكهم اهلوهم وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لاأهل لهم » فانظر الى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي .

وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار ، وكبرائهم ، واغنيائهم المنغمسين في الثراء : احدهما يعرف بنصر بن قوام ، والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي ، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجي ، ولاذكر فيه لسواهما ، ولهما الامناء من المقارضين ، فالقوافل صادرة واردة ببضائعهما ، وشأنهما في الغنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير ، وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما ، وأموال ذوي الوصايا ، لانهما المقصودان بها ، لما قد اشتهر من امانتهما ، وثقتهما ، وبذلهما أموالهما في هذه السبيل . فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر الا على ايديهما ، فهما طول الدهر بهذه السبيل ينفقان أموالهما ، ويبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين ، من

ايدي اعداء الله الكافـــرين ، والله تعـــالى (لايضـــيع أجـــر المحسنين (١٨)) .

ومن سوء الاتفاقات ، المستعاذ بالله من شرها ، انه صـبحنا في طريقنا الى عكة من دمشق رجل مغـربي مـــن « بـــونة » عمـــل « بجاية » ، كان أسيرا فتخلص على ايدي ابي الدر المذكور ، وبقي في جملة صبيانه ، فـوصل في قـافلته الى عكة ، وكان قـد صـحب النصارى وتخلق بكثير من اخلاقهم ، فمازال الشـيطان يسـتهويه ويغريه ، الى ان نبذ دين الاسلام فكفر ، وتنصر مدة مقامنا بصـور فانصرفنا الى عكة ، وأعلمنا بخبره ، وهو بها قـد بـطس (١٩) ورجس ، وقد عقـد الزنار ، واسـتعجل النار ، وحقـت عليه كلمـة العذاب ، وتأهب لسوء الحساب ، وسـحيق المآب ، نسـأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والاخـرة ، ولا يعـدل بنا عن الملة الحنيفية ، وأن يتوفانا مسلمين ، بفضله ورحمته .

وهذا الخنزير صاحب عكة ، المسـمى عندهـم بـالملك ، محجوب لايظهر ، قد ابتلاه الله بالجذام ، فعجل له سوء الانتقام ، قد شـغلته بلواه في صباه ، عن نعيم دنياه ، فهو فيها يشقى (ولعذاب الآخـرة أشد وأبقى) (٢٠) . وحاجبه وصـاحب الحـال عوضـه خـاله القومس ، وهو صاحب المجبى ، واليه تـرتفع الأمـوال ، والمشرف على الجميع بالمكانة ، والوجـاهة ، وكبـر الشـأن في الافـرنجية اللعينة ، القومس اللعين ، صاحب طرابلس وطبرية ، وهو ذو قـدر ومنزلة عند الافرنج ، وهو المؤهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر . وكان أسيرا عند نور الدين ، نحو اثنتي عشرة سنة أو أزيد ، ثم تخلص بمال عظيم بذل في نفسه مدة صلاح الدين ، وعند أول ولايته ، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق .

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق ، لسهولة طريقها .. ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصد طـريقها ، وبحيرة طبرية مشهورة ، وهي ماء عذب ، وسعتها نحـو ثـلاثة فـراسخ أو

اربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ ، والاقوال فيها تختلف سعة وضيقا ، وفيها قبور كثيرة ، من قبور الانبياء صلوات الله عليهم كشعيب ، وسليمان ، ويهوذا وروبيل ، وابنة شعيب زوج الكليم موسى ، وغيرهم صلوات الله وسلامه [عليهم] أجمعين وجبل الطور منها قريب . وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام ، وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام ، وهو بين المغرب والقبلة من عكة الى جهة الاسكندرية ، والله يعيده الى أيدي المسلمين ، ويطهره من أيدي المشركين ، بعزته وقدرته .

وهاتان المدينتان ، عكة وصور ، لابساتين حولهما ، وانما هما في بسيط من الارض افيح ، متصل بسيف البحر ، والفواكه تجلب اليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما ، ولهما عمالة متسعة ، والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياع ، ومنها تجبى الثمرات اليهما ، وهما من غر البلاد ، ولعكة في الشرق منها ، مع آخر البلد ، واد يسيل ماء ، ولها مع شاطئه ، مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظرا ، ولا ميدان للخيل يشبهه. واليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية ، وبه يجتمع العسكر ، دمره الله ، ولصور عند بابها البري عين معينة ، ينحدر اليها على ادراج ، والآبار والجباب بها كثيرة لاتخلو دار منها ، والله تعالى يعيد اليها والى اخواتها كلمة الاسلام بمنه وكرمه .

وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة ، والسادس لاكتوبر ، صعدنا الى المركب ، وهو سفينة من السفن الكبار ، بمنة الله على المسلمين بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الافرنج . وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين ، وهم حجاج بيت المقدس ، عالم لايحصى ، ينتهي الى أزيد من ألفي انسان أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ، ومأمول التسهيل والصنع الجميل ، بمنه وكرمه لامعبود سواه . ونحن به منتظرون موافقة الريح ، وكمال الوسق ، بمشيئة الله عز وجل .

شهر رجب الفرد ، عرفنا الله بركته ويمنه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر ، ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرون كمال وسقه ، والاقلاع باسم الله تعالى ، وبركته ، وجميل صنعه ، وكريم مشيئته ، وتمادى مقامنا فيه مدة اثنتي عشر يوما ، لعدم استقامة الريح .

وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لاتهب فيها الا في فصلي الربيع والخريف ، والسفر لا يكون الا فيهما ، والتجار لا ينزلون الى عكة بالبضائع الا في هذين الفصلين ، والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مايه واكثر وأقل ، بحسب ما يقضي الله تعالى به ، والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ومدتها اقصر من المدة الربيعية ، وانما هي عندهم خلسة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوما ، واكثر وأقل،وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف ، والريح الغربية أكثرها دواما ، فالمسافرون الى المغرب ، والى صقلية ، والى بلاد الروم ، ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين ، انتظار وعد صادق فسبحان المبدع في حكمته ، المعجز في قدرته ، لا اله سواه .

وكنا طول هذه المدة ، التي اقمنا فيها على ظهر المركب ، نبيت في البر ، ونتفقد المركب في الأحيان . فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور ، والثامن عشر لأكتوبر ، أقلع المركب ، وكنا على عادتنا في البر بائتين ، ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر ، فضيعنا الحزم ، ونسينا المثل المضروب في اعداد الماء والزاد ، وأن لا يفارق الانسان رحله ، فاصبحنا والمركب لاعين له ولا اثر فاكترينا للحين زورقا كبيرا ، له أربعة مجاديف ، وأقلعنا نتبعه . وكانت مخاطرة عصم الله منها ، فأدركنا المركب مع العشي ،

فحمدنا الله عز وجل على ما من به ، وكان أول ذلك اليوم يوم شدتنا في هذا السفر الطويل ، وآخره والحمد الله يوم فرجنا ، ولله الحمد والشكر على كل حال .

واتصل جرينا ، والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام . ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها ، دافعة في وجه المركب . فأخذ رئيسه ومدبره الرومي الجنوي ، وكان بصيرا بصنعته ، حاذقا في شغل الرياسة البحرية ، يراوغها تارة يمينا ، وتارة شمالا ، طمعا ان لايرجع على عقبه ، والبحر في اثناء ذلك رهو (٢١) ساكن ، فلما كان نصف الليل ، أو قريب منه ، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لاكتوبر ، ترددت علينا الريح الغربية ، فقصفت قرية الصاري المعروف بالاردمون ، والقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها في المركب ، لانها كانت تشبه الصواري عظما وضخامة . فتبادر البحريون اليها ، وحط شراع الصاري الكبير وعطل المركب من جريه ، وصيح بالبحريين الملازمين للعشاري المرتبط بالمركب ، فقصدوا الى نصف الخشبة الواقعة في البحر ، وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها ، وحصلنا في أمر لايعلمه الا الله تعالى .

وشرعوا في رفع الشراع الكبير ، واقاموا في الاردمون شراعا يعرف بالدلون ، وبتنا بليلة شهباء ،الى أن وضح الصباح ، وقد من الله عز وجل بالسلامة ، وشرع البحريون في اصلاح قرية أخرى ، من خشبة كانت معدة عندهم ، والريح الغربية على اول لجاجها ، ونحن بين اليأس والرجاء نتردد ، مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالى وحفي لطفه ، ومعهود فضله ، سبحانه ، هو أهل ذلك جلت قدرته ، وتناهت عظمته ، الا إله سواه .

وفي يوم الاربعاء الثالث والعشرين منه ، تحركت الريح الشرقية نسيما فاترا عليلا ، فاستبشرت النفوس بها رجاء في نمائها

وقوتها ، فكانت نفسا خافتا ، ثم بعد ذلك غشي البحر ضباب رقيق ، سكنت له امواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ، ولم يبق للجهات الاربـــــــــــــــــع نفس يتنســـــــــــــــم . فبقينا

لاعبين على صفحة ماء ، تخاله العين سبيكة لجين ، كأنا نجول بين سماءين وهـــذا الهــواء الذي يســميه البحــريون الغليني ، وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور ، وهو أول يوم من نونبــر العجمي ، كان للنصارى عيد مذكور عندهــم ، احتفلوا له في اسراج الشمع ، وكاد لا يخلو احد منهم صغيرا او كبيرا ، ذكرا أو انثــى ، من شمعة في يده ، وتقدم قسيسوهم للصـــلاة في المركب بهــم ، ثــم قاموا واحدا واحدا لوعظهم ، وتــذكيرهم بشرائع دينهــم ، والمركب يزهر كله اعلاه واسفله سرجا متقدة ، وتمادينا على تلك الحالة اكثر تلك الليلة . ثم اصبحنا بمثل ذلك الهواء الســاكن ، واتصــل بنا ذلك الى ليلة الاحد السابع والعشرين منه ، فتحركت ريح شمالية ، فعاد المركب بها لجريته واستبشرت النفوس ، والحمدلله .....